ABDULLAH KHALIFA

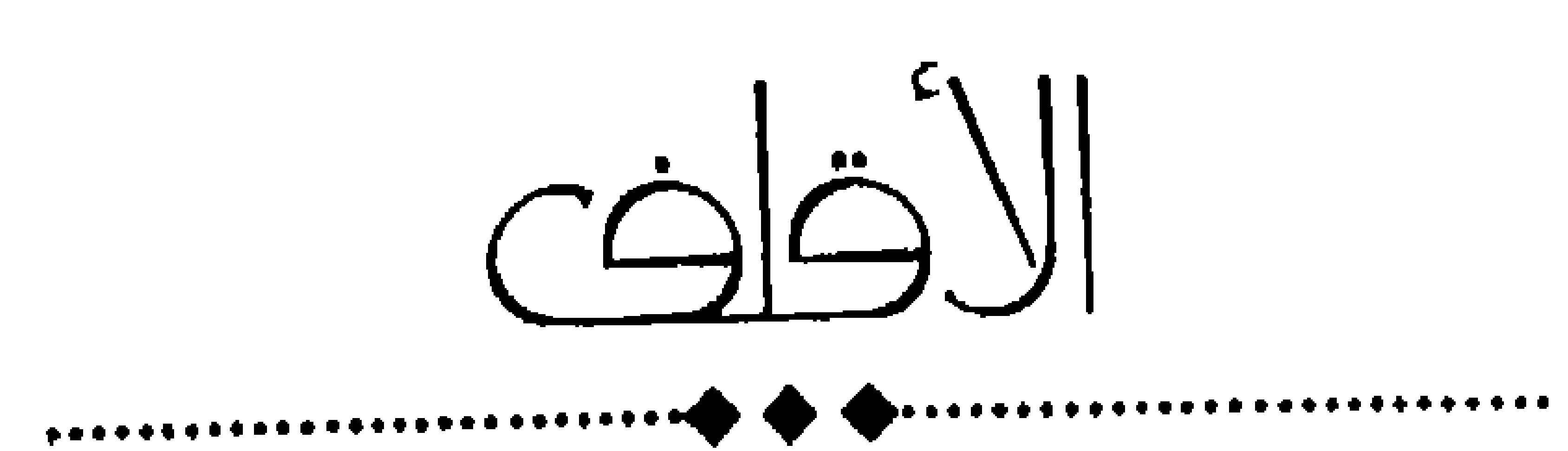


عبد الله خليفة

الأقلف



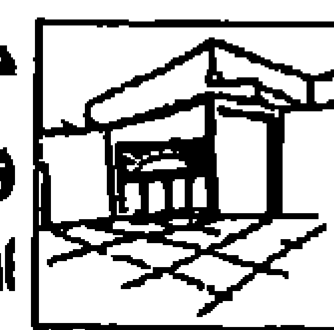




الأقلف / رواية عربيّة
عبد الله خليفة / مؤلّف من البحرين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨



التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @nets.com.jo

لوحة الغلاف :
عبد الرحيم شريف / البحرين
الصفّ الضوئي :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
مطبعة سيكو / بيروت ، لبنان



عبدالله خليفة

الأقلف

◆◆◆



مملكة البحرين / وزارة الاعلام
الثقافة والتراث الوطني

١

وجد نفسه بلا أم ولا أب . ملحق بكوخ ، وبأرض خلاء ، وبسماء عالية ، وثمة امرأة عجوز خرساء ، تغذيه بصرر الخضراوات المنتزعة من البراري ، وبكسرات الخبز اليابسة .

الأرض الخلاء الواسعة التي تلي الأكواخ ، تبدو رمادية كالحة ، تنتشر فيها الحفر الكبيرة التي تُتخذ أمكنة لقضاء الحاجة ، وهي تتحول الى مستنقعات سبخة عندما ينهمر المطر . وتقع فيها مزابل وأراض رحبة مليئة برمل ناعم ، تتدافع فيه أرجل الصبية لقذف كرة من القش ، أو المطاط الممتلىء بالقراطيس ، نحو هدف مكون من حجرين متباعدين .

وفي شرق هذه الأرض تقع أكواخ تمتلىء بعبيد سابقين ، وفرق الرقص ومنازل الشاذين وشلل القمار والرجال «الازكرت» ، وبعدها يتراءى البحر . وفي غربها تمتد مستنقات وأكواخ متناثرة وبنايات قليلة ومقابر غريبة .

هذه الساحة ، كانت الوجود المرئي والمغذي ليحى ، الذي كان طفلا يتسلل كالقطة الصغيرة الى الأشياء المهملة والمزابل ، فينتزع أشياءه

ومأكولاته منها .

إنه يعود بأسرع من لمح البصر الى حماه ، بين السعف والظلام ، ويدقق في صيده ، ويأكل ، ويحدق بين الخوص ، خائفاً من الرجال والأولاد الشرسين الذين يصفعونه ، أو يتسلون باكتشاف جسده .

ينتظر خطوات مفرحة حبيبة ، وأنفاساً لاهثة أمومية ، هي كوته الحنونة على العالم البشري ، انها خطوات «جدته» ، وفتحها للباب ، وتحديقها الفرح بوجوده باقٍ ومعافى . هي أجمل لحظات يومه ، حيث يندفع الى الصرة التي تحملها ، وينتزع الخبز والبصل «والكاكول» : هذه النبتة الخضراء التي تنبت بعفوية ووحشية في الأراضي الخلاء الواسعة ويندفع للأكل منتشياً ، مذهولاً بوجود «بيضة» أو برتقالة سليمة .

وكان لا يكاد أن يعرف اللغة . فهذه الجدة العجوز خرساء ، تهمهم بشظايا من أصوات وترسم انفعالاتها بالإشارات المعقدة ، ولكن لغة الإشارات هذه غدت طريقه للشبع ومعرفة الخارج .

إنه يقرأها بسهولة ، فيدرك ان العجوز سارت بعيداً هذا اليوم ، أو انها عرجت على السوق ، ورأت أناساً كثيرين وأشياء عجيبة ، أو ان بعض الأشرار انتزعوا حشائشها الطازجة التي قلعتها بصبر .

انها ترمقه بحب شديد ، وتستند على الخوص ، ويغدو وجهها الذي يشبه الفطيرة المتبعجة في غاية إشراقه ، فتغفو وتشخر ، ولكن سعف النخل اليابس يناوش وجهها ونومها ، فتصحو وتتمدد على الأرض ، حيث بطانية عتيقة مهترئة تحميها من التراب .

يحتضنها ويمشط شعرها ويمدد ساقيها المتثنيتين ، ويدلك جلدها اليابس المتغضن ، ينتزع نعالها الصخرية ، فتبتسم إليه ، ويظهر فم أدرد ، ويشرق ذلك

الوجه التعب .

كان يشعر بلغة عميقة تتواصل بينهما ، تدب ذراتها منذ الصباح ، حتى يغفو على ساقها في الليل ، وهي تداعبه بحكايات لا تقولها ، وبألغاز لا تحلها فيسافر في العالم الغريب .

ولو حدث أن تأخرت هذه الكتلة المهروسة من اللحم واللغة والثياب ، فإن الطفل المذعور المحبوس في الظلمات ورؤية الأشباح والأشرار ، ينطلق في الخلاء والحفر مترصداً الدروب ، منتظراً تلك المهتزة شبه العرجاء ، وحالما تظهر في كابوس الانتظار والوحدة ، فإن رأسه تتغلغل في بطنها أو صدرها وهو يكاد يبكي من الفرح .

لكنه لم يكن بعيداً عن اللغة ، فتجمع الأكواخ المتناثر والساحة والمكان يضج كله بالكلام والصراخ والنباح والمواء . هناك حشود تتعارك وتتكلم وترقص وتلعب وتعمل ، وتأتي فرق من العازفين والطبالين ، ويمور الحي بالأطفال والأولاد الذين يسحبونه من قوقعته ويسمعونه الكلام ، الذي يضج في روحه ضجيجاً هائلاً . كل كلمة كانت تنفجر في سمعه ، وتدوي في قعر بئره العميق الواسع ، ويجثم في وحدته ليرددها ويتصورها ، وليعرف بأن الله كائن علوي بعيد يصنع المطر والبحر والسمك ويوزع الشجر والحلوى على البشر ، وان الملائكة تنزل الدروب تعاقب الأشرار وتحب الأخيار ، وان أعماق الأرض ملأى بالجان ، وعفاريتها يوزعون الأمراض والأسقام على الناس .

وشيئاً فشيئاً راح الأطفال والصبية ينتزعونه من مكمنه المعتم ، ومن همهماته باللغة وألعابه بعلب الكبريت والحصى ، ويأخذونه الى كرة القش ، وألعاب رمضان الليلية الممتعة .

حينذاك كان يشاهد شيئاً متلألئاً لأول مرة في حياته . ذلك البيت ذو

المصابيح والمآذنة ، والذي يصطف فيه الرجال وينحنون ويقبلون السجاد .

كان يحدق فيهم مندهشاً ، ثم ينغمر في حشد الصبية الذين يخطفون الحلويات ، ويلعبون بالنور والظلمة في الطرقات ، ويترنحون سكارى تحت نوافذ الفتيات .

كان يتفتح على عالم مدهش مليء بألوان الأعياد ، وبالثياب الناصعة ، ويرى حشود العباءات ، والأنقبة تظهر العيون الفاتنة ، يحدق في الأسرة وأصباغ الوجوه المذهلة ، وفي الخبز المستدير الناضج ذي الفقاعات الساخنة ، وبأوراق اللعب ذوات الملوك المتحاربين ، والجبن الأبيض الناعم المضغوط في العلب الحديدية ، والزجاجات المليئة بالسمك الصغير المهروس المملح الحادق ذي الطعم المخدر .

ويرى البحر المليء بالأسماك والمصائد والقوارب ، ويجد ان أسياخاً تنغرز في ظهور «القباقب»(*) الهاربة المتوارية تحت الرمل وعيونها الكروية تحدق بذعر ، وعصي البحارة تطارد بقسوة الصبية الذين يخترقون المصائد هاربين بأسماكهم المسروقة .

ويعود مترنحاً من حصيلة النهار : كم وافر من الكلمات الغريبة ، وآلام مبرحة من أسنان الأسماك والصبية ورؤوس الحصى النابتة في الطرقات ، ومن بذاءات الرفاق .

يأخذونه الى ضواح بعيدة غائرة بين بقايا البساتين وثلل الفلل الزاهية ، حيث يتجنبون الكلابَ الشرسة ، تاركين لبعضها لحماً مليئاً بالزجاج ، مفرغين حمولات براميل القمامة من نفائسها ، جامعين أشكالاً عجيبة من الخبز والجبن وألعاب الأطفال . ثم تدور المعارك حول اقتسامها ، ولكن التسارع لالتهامها يضع حداً لكل شجار ، ولا يجد هو شيئاً بين أسنانه إلا

آثار اللكلمات الخاطئة . .

وبعدئذ ، يعرجون على الضلع الخلفي لبستان الشركة الكبير ، حيث ترقد عشرات الجذوع لأشجار عملاقة بأغصانها وزهراتها الغريبة ، وثمارها الخشبية المخرمة الميتة .

يتبعثر حشد الأولاد في مقبرة الشجر الواسعة ، باحثاً بشكل محموم عن أشياء لا يعرفها .

رآهم ينتزعون ثماراً ويقضمونها بلذة ، وهي تتدفق بسائل قانٍ ، أو يقذفونها بقرف وهي ممتلئة بالديدان .

فجأة همس هذا الصامت التابع ، باللغة ، وهو يشير الى هذه الثمار :

ـ ما . . هذا . .؟

تطلع فيه الجمع مذهولا ، واشترك في ضحك صاخب ، امتلأت فيه العيون بالدموع ، وساح السائل الأحمر مع قشور اللوز الممضوغة . .

ومنذ ذلك الوقت راحوا يسخرون منه ، وكلما مروا بشيء قالوا «هذه صخرة» ، «هذا قارب» ، «هذا رمل . .» «تلك . . عجيزة!» «ذاك . . برازا!» . .

ويغرقون في الضحك . .

في الليل ، يمضغ هذه الألفاظ في حضرة الخرس الانثوي ، والغياب الأبوي ، يرددها ، ويلهو بها ، ويدهش من بعضها الذي إلتصق به ، ولا يفهمه ، خاصة كلمة «النغل» ، التي يشعر بها كريهة ، وان الغين فيها مثل شفرة الموسى .

أصبح الأولاد يضايقونه أكثر مما يسعدونه . كان شكله المميز ، ولونه البرونزي ، وعيناه الجميلتان ، مدعاة لتحسسات لاذعة غامضة لجلده ، وكانت أيديهم تتسلل وراءه ، أو تقع على أنفه وخديه ، فيخاف ويحزن

ويجري بعيداً حيث الكوخ ، و«السيخ» الصدىء الذي يمنع أقدامهم من الدخول ، لكن كلماتهم الفظة كانت تتقافز من خلال الخوص الى مسامه مثل قراد الكلاب .

وعندما عرف البحر شيد طريقاً متوارياً متسرباً اليه . هناك يغسل ثوبه الوحيد وملابسه الداخلية الممزقة ، وينشرها على الصخور ، وينتظر عارياً ، محتمياً في الشقوق ، عن الأنظار والشمس الحارقة ، مدركاً ان هذا العري مخيف وعار ، ولا يعرف لماذا؟!

وفي غفوة مباغتة ، دهش لاختفاء اسماله . رفع رأسه وأطل ، فرأى الصخور لا تحتضن النوارس كعادتها ، وان ظل خط الشاطىء يتلوى بين العين والسوق والأكواخ . . كانت النسوة يغسلن القدور ، والرجال يتناثرون بين المصائد والدروب .

هل أخذت ملابسه الموجات الهادئة أم سرقها أحدهم؟

وفجأة ، أطل الأولاد برؤوسهم حوله ، وانفجروا ضاحكين . .!

لم يتركوها إلا عندما وقف غاضباً . ان ذلك الصمت والسكون لم يكونا يواريان خوفاً وبلادة حس ، بل ان القوة والشجاعة والصلابة كانت تنز من مسامه ، وإن نهارات الجوع والزحف نحو المزبلة ، والبحث بالأظافر بين الكلاب النافقة والدود وأسنان الزجاجات المتعطشة للدم ، وجمع الأرز المتناثر بين البول والبراز والتراب ، وشرب الماء من المطر المتجمع في الأرض ، والجثوم الطويل بين الخوص المرتعش المتحدث في الليالي الطويلة الرهيبة ، حيث خطوات اللصوص النشطة وانفجارات الدماء المدوية ، وخطط السحرة المخيفة .

كلها ، كلها ، قد رصت جسده شوكا وحصىً .

إن وقوفه الشامخ ، وتحول الأولاد الى نتوءات تحت ساقيه ، لم يؤد الى خوفهم ، بل ان دهشتهم انفجرت فجأة ، وتطلعوا الى ذكره مذهولين .

صاحوا وهم يلقون ثيابه ، ورددوا كلمة غريبة جديدة!

شعر في ذلك الموقع المرتفع عن الحي ، انه إنسان مختلف غريب . لقد نبت خطأ ، أو ظهر بصورة خارقة .

(*) سراطات البحر

٢

وهو في أسئلته الممضة عن الأب والأم واللون والسماء ، لم يفقد صلاته الحميمة الضئيلة بالمكان والبشر . إن شكله الغريب ، ووجوده المريب ، لم يجعلاه يُدمن الكآبة ، فكانت الوحدة والعزلة تدريباً على الحفظ وترديد أسماء الناس والأشياء ، وأسئلة حارقة عن هذا القدوم ، والأب المتواري ، والأم القاسية . فيبحث في ثوب الجدة ، فلا يجد سوى ورقة واحدة لا يعرف ما الذي كُتب فيها . هل هو اسمه وحقيقته؟ هل تدله هذه السطور على بيته وسعادته؟ هل ترشده الى اخوته؟

لم تستطع شفتا القارىء الذي رجاه أن ينتزعها من الصمت والموت ، سوى أن تلفظ اسمه وحيداً ووراءه صحراء من الرمل والعطش .

ثم كانت هناك فراغات كبيرة سقط فيها بوجه بلا ملامح ، وجسد مستعار من الغيب .

إنه يقف فوق رأس الجدة ، وهي تستعد للنوم ومواصلة غيابها الكامل .

يهز كتفها برفق ، ويشير إلى نفسه ، ويرسم إشارات استفهام مروعة

كبيرة ، لو كان يستطيع أن يشحنها بكل جراحه لفعل ، يصرخ مزلزلاً الكوخ الأخرس :

ـ جدتي . . كيف جئت إلى هنا؟

بل كان يريد أن يلعلع بصوته : من أنا؟ لم أنا قطعة من اللحم النتن مرمية على قارعة الطريق؟ لم أنا وحيد . . في كل هذا الوجود الصاخب الشرس؟

إن الجدة تفك صرتها الصغيرة ، محارتها التي تضع فيها أثمن الأشياء ، وتقدم له قطعة نقدية صغيرة ، كان لا يستطيع إنتزاعها إلا بشقلبة مروعة على الأرض الصلدة .

ـ لا أريد . . أخبريني . . يا جدتي!

كأنه كان يخاطب الزمن المتواري ، والاحبة المختفين وراء القسوة والشهوة .

ليس ثمة ذاكرة هنا ، ليس ثمة سوى خرس مُحب . يترنح ويسقط في حفرة الفراغ والغياب .

إنه يرى كل شرايين المدينة مرتبطة بالأمومة والأبوة .

صبية الحي القذرون الشرسون الهاربون من المدرسة تلاحقهم عصي الآباء الجميلة وتعيدهم القسوة الرائعة الى الفصول .

أثداء الأمهات ناضحات بالحليب . عباءاتهن سوداء منفوخة بالهواء وهن يركضن وراءهم على الشطوط والزجاج والقواقع الغادرة .

أفواههن المفتوحة الصارخة ، والمطر ينهمر ، والزوابع تعصف ، والحرائق تندلع مخيفة ملتهمة السعف والعظام .

الآباء العائدون من البراري البعيدة ، وهم مضمخون برائحة العرق والنفط ، وأطفالهم يتعلقون بسيقانهم ، باحثين عن الكنار .

الأولاد العائدون من الظهيرة اللاسعة والجوع المضني ينتزعون أمكنتهم

على السفرات الكبيرة الملآى بأطباق الأرز ودوائر السمك المشوي .

هو وحده يتطلع إلى الطرق الموحشة ، والى المستنقعات الساخنة ، حيث تتراءى كالأدخنة الحارقة حشود الذباب والبعوض ، وتمضي الأحذية عائدة الى المنازل ، والى الأبواب التي تغلق على الثلل المتعانقة ، والشجارات السعيدة ، والأكلات الصاخبة .

هو وحده الذي يغفو ، وتترنح رأسه على الجريد ، ويحتضن كلبة ويطعمها ، هو وحده الذي يراها تقاتل من أجل جرائها ، وتبحث بلا كلل عن طعام لها .

لقد وضعتها في زاوية غائرة ، ووضعت أنيابها سياجاً بارزاً . وتتحول فجأة الى نمرة ، ويرى الكلاب العدوة تُقذف وهي تنبح صائحة بألم شديد .

كانت صداقة سريعة وأليفة بينهما . لقد أوجد لها طعاماً بصورة منتظمة ، وتخلى عن بعض حصصه ، وقاد الجراء الضالة الى أثدائها الكثيرة . لقد قدرت حنانه وتدلهت بحبه . فتروح تمرغُ رأسها في حضنه ، وتبحث عنه ، وتقدم له خدمات كثيرة . . ولكنها لم تصر أمه .

كان يتساءل عن كل هذه السماء اللامبالية . القاسية في القيظ . المدمرة في الشتاء . كان لا يُطلب من أحد . ويجد ان أصابعه الحجرية هي التي تستحق الثناء . كان الأفق كله رمادياً ، وصيحات القطة الداعية صغارها كانت تحزنه . ولا يعرف لماذا يبكي حيناً ، ويصرخ ، ويمشي وحيداً تائهاً أحياناً كثيرة . .

كان يمضغ الكلمات عن الصلوات والأمهات ويقذفها بعيداً .

كان يتساءل بألم ، ثم يعود أدراجه إلى الدروب اليسيرة للبشر . يشتاق إلى جدته ، التي ليست جدته ، الإنسان الوحيد الذي يفهمه بلا لغة ،

وبحب عميق يذوب مع الحشائش الخضراء والجراد الذي يتقرقش مشوياً في الفم .

يتطلع إلى حيه ورجاله ونسائه . هؤلاء الجيران الذي يمضون في أعمالهم الدائبة المجهدة بلا كلل .

هذا علي الدخان وابنه . ان لديهما عربة لنقل الأحجار والرمل الى البيوت . إن الأولاد يسمون الأب فليب والابن الاسكندر الأكبر ، وهو لا يعرف من هم أصحاب هذه الأسماء ، ولماذا اسقطوها عليهما ، ولكنه يرى علياً يقف بقوة وثبات على ظهر الحمار ، لاسعاً إياه بشدة ، ذلك الحمار المتآكل لحماً والمقروح ، يندفع في الدروب بسرعة ، جاراً العربة ، التي تطرطش عجلتاها الماء والرمل ، في حين يجلس الابن في العربة شبه نائم ، بجسده الهزيل ، مدلياً رجليه الحافيتين ، ساعلاً بقوة مخيفة . .

ان الأب والابن لا يكفان عن العمل ، وعن جلب الصخور البحرية الرهيبة . إلا في الظهيرة حيث يحتشد حولهما جيش من الصغار والنسوة ويروح يلتهم الأكل حتى يكاد «يخفس» الصينية . ومنذ الغسق يهجع هذا الجيش وينام متداخل الأجساد في الكوخ الصغير .

وفي الليل تتفجر الصيحات . فهناك امرأة تصرخ من الطلق . أحياناً يرى جثتها في الصباح محمولة على نعش متوجه بسرعة وتهليل الى المقبرة . ان هذا التهليل كان يدهشه . ان تلك الصيحات المتدفقة بلا توقف كانت تهدىء وتوحد ذلك الطابور ، الذي يستفرق بعد دفن المرأة ، عائداً الى المقاهي أو البيوت ، متحدثاً بثرثرة باردة عن شئون الحياة . لقد تركوا ذلك الجسد البض وعادوا إلى الدخان والشاي .

وفي العتمة الملعونة تندلع صيحات الذعر من الحرائق ، ويرى الأجساد

محروقة ، وأجساد الكلاب والقطط مشوية بين الرماد .

لم يكن ثمة مسافة كبيرة تفصله عن الموت . في كل لحظة يحدق هذا الملكوت الغامض به . لم يكن يخافه . وطوال ليال كثيرة كان جسده يشتعل ، وأمعاؤه تنزف ، ورأسه تطبخ الكوابيس ، وينهض في الصباحات حالماً بموقد وشاي .

في المسجد يرى الناس يسرعون إلى الوضؤ ، ويسمع أصوات مضمضتهم وإغتسالهم ، ثم يندفعون للوقوف صفوفاً منتظمة ، وينحنون بشكل متكرر ، ثم يتفرقون متوجهين إلى الدكاكين والأعمال والشحاذة والسرقات والأكواخ المريبة . .

يرى الكثيرين يتعتعهم السكر ليلاً ، فتتطوح أيديهم وأرجلهم في الهواء ويتصادمون ويتصايحون ويتشاجرون وينزفون ثم تسترد الطرق هواءها النقي وهدوءها المسلوب .

كان الليل لا يأبه بالألم ، والنار ، والصراخ ، وكان النهار لا يُعد بالفرح ، وإن ملأ الدروب بالنور ، وبدا الزمان مُعلقاً فوق تلك العشش من الخوص ، والجريد ، والعظام ، وظل الأب متوارياً في روح يحيى ، غير إنه لم يعد ماعوناً للشبع ، بل للاجابة عن طلاسم من الشوك .

وذات يوم لمح فتى جديداً في الحي ، استأجر كوخاً وحمل عربة وراح يجري بها إلى السوق . . ولم يعد إلا في المساء ، ومنذ الفجر نهض ومشى في المكان قليلاً ، اقترب منه ، وحدق فيه . لكنه تركه وحمل عربته وانطلق بنشاط .

لقد أُعجب بذلك الشاب القوي المرح ، الذي يمتاز كل ما فيه بالطول ، من جذعه حتى أصابعه .

وحين انغمر في «السمادة» يبعثر القراطيس وأكياس الاسمنت الفارغة وأكوام الزبالة الجديدة وسُحُب الذباب ، فوجىء بصراخ وراءه :

ــ ماذا تفعل . . أيها . . الحيوان؟!

إلتفت فوجد الفتى ، صاحب العربة ، يتطلع فيه متقززاً .

لم يستطع أن يجيب ، وواصل البحث ، عاثراً على خضراوات ليست رديئة .

ــ هيا . . تعال معي!

لم يقل شيئاً واستمر يجمع أشياءه في كيس . تطلع بألم إلى ثوبه القذر الذي أصابه نصل حديدي مزقه ، وأيقن ان عيني الشاب الناريتين هما اللتان شقتاه . وواصل البحث ويده ترتعش ، والأكياس وأكوام القذارة تطلق روائح فظيعة . تظاهر بانه أنهى عمله ، واكتفى من الأطعمة والأشياء ، وسار نحو الظل ، ماراً بالفتى بلا مبالاة وعدم اهتمام .

اندفعت العربة والفتى نحوه :

ــ لماذا لا تتكلم . . ماذا بك . . هل أنت أخرس؟

أحضر إبرة وخيطاً ، ونزع ثوبه ، وراح يخيطه بصبر وهدوء . الفتى يرمقه بابتسامة تحولت إلى عجب واعجاب .

ــ تعال إليّ . . سأعطيك ثوباً . .

ولما لم يسمع كلاماً :

ــ ألا تريد أن . . نكون . . ربعاً؟!

كانت هذه اللهجة مختلفة ، وقد قيلت والفتى يغادر عربته الحديدية المشوهة ، ذات الأسنان المفتوحة ، والعجلة الصرارة ، ترنح قربه ، فاتحاً العينين السوداوين لتدفق باطني سمح ومعذب .

أمسك يحيى يده مصافحاً ، وغير مبتسم .

ومنذ ذلك الحين ، لم يعد يحيى وحيداً .

في عريش اسحاق ثرثرا في الليالي الشتائية الطويلة ، جاعلين منقلة الجمر تحتضن «غوري» الشاي وتدغدغه بالدفء والسكر . وحين تنثال الكؤوس الحمراء تتدفق أحاديث إسحاق ، وكأنه كهل تشرد في الأرض ، ورعى الماعز طويلاً . نسج الحكايات وصار بطلها . خيل ليحيى انه يعرف كل شيء : سور القرآن وتجار السوق والسوء .

وضع أمامه القراطيس الغريبة في بدء النهارات الساطعة الصيفية ، معطياً إياه أسرار اللغة المكتوبة الأولى ، فرأى أعمدة كثيرة تقود عربته إلى جهات مفتوحة للنور .

أعطته هذه الاخوة المصنوعة من الصدفة ، والشظف تدفقاً وتفتحاً ، فاندفع مع إسحاق في الأسواق ينقلان الأكياس الثقيلة والألواح وعلب الصبغ وكتل الحديد ، ويتناوبان في دفع هذه الكتلة الشرسة وسط تدفق بشري وحيواني كثيف ، وفي الظهيرة الحادة يستلفان ظلاً من بناية ، ويفرشان «خيشة» ويأكلان فوقها الخبز والبصل والعدس ، ويغفوان لُحيظة ، حتى تدعوهم الدكاكين إلى ضجتها وأوامرها .

وحين يريان حصيلة النهار في كوخ أحدهما يفاجآن بذلك المبلغ الهزيل ، وضخامة التعب الذي يهدهما فيفترسهما النوم بلذة شديدة .

٣

كان إسحاق متدفقاً باللغة ، ويظل متحدثاً وضاحكاً ودامعاً طويلاً ، ينبش فيها تراب أيامه ، ويحيى يحدق فيه كمن وجد معلماً كبيراً ، وأخاً مسافراً محملاً بغنائم روحية عميقة .

جسداهما يتقاربان عند الرأس ، وتتشارك عيونهما في انفعالات متداخلة ، وكان القنديل ذو الحديد الأزرق والزجاجة المغبَّرة ، ذا ذؤابة مهتزة ، ترسم أشكالاً خلابة من تداخل النور والظلام .

كان إسحاق يقول :

ـ عشت . . زمناً سعيداً طويلاً . . في عائلة وجدت نفسي واحداً منها . . كنا مجموعة من الاخوة والاخوات نندفع معاً إلى صحن الأرز الواسع ، ونملأ أفواهنا بدجاجه وحباته الصفراء . . ونتزاحم عند الحمام . . وتتعارك أقدامنا من أجل قطعة أكبر من اللحاف . . وتتقارب رؤوسنا حين تقص الأم حكاياتها عن الجن والسحرة والملوك . .

كنت واحداً منهم . . لم أشعر انني غريب . . وما ان كبرت . . حتى

نزلت مكانتي ، وانتزعوني من المدرسة . . ووضعوني في المخزن! لقد بدأت واجبات كثيرة تنهالُ عليّ ، صرتُ أغسل المواعين وأحلب الأبقار وأجمع الروث .

كانت الأم الحنونة تصرخ بي ، ولا تدعني أنام ، وحالما تصيح الديكة أجد نفسي وراءها ، أنظف الأرز وأزيح هباب القدور وأجلب السمك والخضار من السوق وأغسل الملابس . .

كانت هذه الأعمال كلها تثيرني وتتعبني وتغيظني . كنت أرى أخوتي يتوجهون إلى المدرسة ويتعلمون . كانت ملابسهم جميلة ، وجلودهم تفوح بروائح الصابون ، وأنا ذو جسم زفر ، قذر . .

وحين أنهار من التعب ، ويسجنني المخزن في عفونته وظلمته ، وأغدو كيساً من أكياسه ، تحرقني مشاعر غريبة عنيفة وأصرخ : لماذا . . لماذا . . لماذا يعاملني أهلي بهذه القسوة ، هل أجرمت بشيء؟ هل لي ذيل أو ولدتني كلبة؟!

امتلأت بالغضب ، ورفضت أن أعمل . فجاء إليّ الأب ، وأغلق علي باب المخزن ، وتركني بلا أكل ، ولا أمل . . كنت أصرخ : لماذا يفعلون ذلك بي؟ رحت أنظر إلى سحناتهم المختلفة . رحت أحدق في جلدي الغريب . . لم أكن ابنهم . وجدني الأب عند باب المسجد . . لقد تغير كل شيء فجأة . صرت ابن حرام! وهذه العائلة التي أحببتها صارت تخاف مني . لم أحزن طويلاً . عدت إلى العمل واشتغلت كثيراً وكأن شيئاً لم يكن . ورحت أخفي بعض الدراهم وأبيع البيض والدهن . لقد تملكتني مشاعر غريبة وعنيفة . كل شيء صار محل سخريتي . أحاديثهم وصلواتهم . لقد اشتهيت اخواتي السابقات! كنت أغوص في الروث فأضرب الحيوانات بقسوة . . وذات يوم

اكتشفوا سرقاتي وعثر أبناء الكلب على نقودي المخبأة! أحضروني أمام الأب، والعائلة مجتمعة كلها. كانوا يتطلعون فيّ بدهشة وغضب:

ـ لقد عاملناك كابننا . .

ـ النغل نغل!

كنت أعمل لديهم بلا نقود. بلا ملابس. بلا حب! كنت أود أن أصرخ: «لماذا . . ألقيتموني في القاع؟ كنت واحداً منكم . . كنت أحبكم . .»، لكنني ركعت تحت أقدام الأب وتضرعت كاذباً:

ـ سامحني . . ليس لي غيركم!

وعدت أسرق واسترجعت مالي وهربت!

نهض يحيى وراح يمشي في أرض الكوخ المحاصرة، وكأنه يود لو يقفز الخوص.

ـ هل سنحيا هكذا . . بلا أسماء . . نخاف من عيون الناس وألسنتهم؟

ـ لا عليك من أحد . . أكره البشرَ . . كل هؤلاء قمامة . . لا تعذب نفسك بهم . . وأبحث عن النقود . . النقود وحدها ستعطيك الاسم والشرف والاحترام . .

ـ هل سنتشرد طوال عمرنا . . هل سيظهر أباؤنا ذات يوم؟

ـ إذا جاءوا ماذا سيفعلون إليك؟ لك زنود تمشي فوقها التيوس فأعتمد عليها . .!

ـ سيكون لك أهل، ستكون لك قيمة واحترام . . أما هكذا فكأننا قطط!

ـ وماذا ستفعل بالاحترام . .؟ هيا لا تجعل من الأمر مأساة. أعملْ وأجمع النقود فتنحل كل المصائب . . هيا ارقد لننهض مبكرين غداً!

٤

باغتت يحيى آلامٌ فظيعة في عمق الليل . راح يتلوى وحيداً على الحصير . ولما لم يستطع احتمال سكاكينها النارية ، زحف نحو الجدة التي تغط في نوم عميق ، مكدودة من مشي النهار . تحسسها بيده ، أوغل حطبته المشتعلة في رقبتها فانتبهت ، فتحت عينيها بصعوبة . ثم اعتدلت بقوة وخوف . حدقت فيه . تحسسته برعب . مشت مضطربة في أنحاء الكوخ . لعلها كانت تستدعي ذاكرتها الواهنة . وتستحضر ما تعرفه من علاج وشفاء . قبل أن تخرج راكضة لاستدعاء ساحر ربما ، كان يمسك قدمها بقوة ورجاء ، مشيراً إلى كوخ صديقه .

فهمت العجوز ، واقتحمت عريش إسحاق الغارق في النوم واحتضان شبح عابر . هزته بحدة ، فاستيقظ مروّعاً ، محدّقاً ، في هذا الجسم المخيف ، ذي الروائح الفظيعة . راحت تهمهم وتغمغم ، وكأن حريقاً شب ، أو أن طوفاناً بحرياً هاجم الأكواخ .

نهض إسحاق ضجراً وقال :

ـ هذه . . خيرات معرفتي بيحيى . . عجوز . . وليل . . ومصائب!

وَضَعَ المريض في العربة الصغيرة فتدلت ساقاه منها ، وازدحمت آلامه في كتلة فراغها الضيقة . حملت العجوز فانوساً ، ومشت وراءهما مهتزة ، ويكاد المشي السريع أن يحول عرجها الخفيف وتقلباتها الغريبة إلى دوران لولبي عنيف .

كان الليل وحده فوقهم ممتداً أسود ، متحداً مع أرض الخلاء الواسعة ذات الأفواه والتلال الرملية الصغيرة وأكوام الأشياء . ولا يبدو في العتمة سوى نقط ضوئية متناثرة لمبانٍ بعيدة . وامتلأ الصمت بثرثرات الكلاب ونباحها المتقطع ، ومواء القطط وعراكها على أشلاء الأسماك وعظامها .

تتحسس عينا اسحاق الطرق المبعثرة في الظلام . يمشي بحذر ، وتسبب كل نزلة مفاجئة ، وكل صعود مباغت ، سلسلةً من التأوهات ، ويترجرج الضوءُ الباهت وراءه ، والعجوز لا تكاد تلحق به ، وهو يوجه العربة نحو مبنى بعيد .

وصل عند نقطة هامة . أرض مستوية صلبة ، ارتفعت فيها عدة مبان غريبة . فهناك مقبرتان مسيحية ويهودية ، وبضعة مبان لموظفي الإرسالية الأمريكية ، وكلها مسّورة بحوائط عالية سميكة ، وتتناثر في فراغاتها الأشجار ، التي بدت في الظلمة مثل نساء عملاقات .

ثم جاءت مقبرة المسلمين الواسعة ، حيث لا سور وثمة شواهد كموجات البحر .

وهو في المشي الصعب ، كان ، اسحاق يفكر في كل هذا الموت المتنوع ، ويدهش للطرق المختلفة للذهاب إلى الآخرة . كان يتمنى أن لا يتوغل في مقبرة المسلمين فينتزع هيكلاً عظمياً من رحلته العظيمة ليوم الحساب . .

في هذا المكان طالما حام وهام وتسكع و«طر» . كانت مقبرة المسلمين الموحشة لا تستقبل سوى الفقراء والجنازات الكئيبة المتقشفة ، حيث تُقرأ بعض الأدعية ، ثم يعود العشب الأغبر لرفع رؤوسه بعد دهس الأرجل الحافية والنعل .

أما مقبرتا اليهود والمسيحيين الصغيرتان المزروعتان ، ذاتا البوابتين الحديديتين ، فكانت جنازاتهما مختلفة ، والبشر الحزانى يبدون بجمال غريب : بدلات سوداء وباقات زهور ونعوش خشبية جميلة ، فيظن إن القوم ذاهبون إلى فرح صامت .

كان يقترب من الجموع ، جاعلاً أسماله تظاهرة حزينة بارزة ، ثم لا يكاد يقبض شيئاً من الحشود . لكنه بين جمع اليهود ، أبصر فتاة حلوة ، أعطته قطعة نقد كبيرة .

كانت العربة تصر في الطريق المتعرج ، ويحيى محشور الرأس في زاوية حديدية مشاغبة ، تهزه وتوقظه وتجرحه . يكاد يغرق في نوم مؤلم ، وهذيان ، يمد يده لامرأة بعيدة ، طالما اقتربت منه ، وبان وجهها المضيء الأبيض الجميل كقرص خبز لذيذ ، بين عباءتها المعتمة .

لا يستطيع أن يستعيد ملامحها المهتزة ، المترجرجة بأحجار الزمن والغياب . إن يديه لا تمسكان سوى الحديد الشائخ ، والوقت اللاهب ، والمرأة توغلُ في الغبش ، ملقيةً إياه في نهر الخوص المتدفق نحو الجوع والمرض . .

طالما هتف لشبحها ، ولكنه الآن يصرخ بكل ضلوعه لتمد يدها إليه ، لتنقذه من هذه الشواهد المتزاحمة قرب رأسه .

لكن لا امرأة جميلة في الطريق الخصم . لا يوجد سوى هذا الصديق القوي ، الذي شخب من العرق ، وراح يبتسم إليه بوهن وسوى العجوز

المندفعة ومصباحها يتراقص محولاً وجهها والعتمة والمكان الى رؤيا مخيفة .

العربة تقف عند بوابة مستشفى الإرسالية الأمريكية . انه مبان قليلة كبيرة متجاورة . مستطيلات ممتدة ذات طابقين ، ممراتها العليا المسيجة تنتهي بأقواس . والبناء الأخير الشمالي هو كنيسة ذات برج وساعة . وثمة طاحونة هوائية تتغلغل في عمق الأرض ساحبة المياه .

الحارس يدخلهم بسرعة ، والعربة تكاد تترنح في الممر الأول ، حيث بضعة كراسي قليلة ، ثم تمتد قاعة كبيرة ممتلئة بالأسرة والحشرجات والصرخات والشخير .

ممرضة هندية سمراء تحدق في يحيى وهو مختنق في العربة . يساعدانها على انتشاله من الحفرة الحديدية . تجس نبضه فتذعر من حرارته . تندفع نحو ممرضة بيضاء كانت تحقن عجوزاً متهدل الجلد والملامح .

ـ أسرعي . . يا (ميري) ثمة . . فتى يكاد يموت . .!

٥

عندما حدقت ميري بيحيى أصيبت برجفة .

ثمة فتى جميل مغسول بالكدمات وآثار الجروح وبأسنان العظايات والقطط . جسده المحموم الملفوف بخرق قذرة يتبدى عارياً . مناشير الأشياء حرثته عميقاً ، ولم تصل موسى المسلمين الى غرلته . وبدت زرقة عينيه مذهلة في هذه السمرة القمحية العميقة . فكأنه أمريكي جنوبي أغتسل بنيران افريقيا ، أو دم هندي أحمر أتحد بالغزاة الشماليين .

شعرت باحساس غريب ، وهي تتحسس جسده ، وتُفرج ساقيه وتنزع ملابسه وتغسل جلده بقطعة شاش مبللة . وَمَضتْ صور الشباب الوسيمين الذين تركتهم في برد البلدة ، وتعالى الصخب والغزل والضحك مع تدفق كؤوس البيرة الطافحة ، وتلامس الأيدي والشفاه .

ارتجفت وهي ترى العضو نائماً .

أعطت الطبيب المشرط والسكاكين لكي يتوغل في ذلك الجسد الصلب ، وثمة قشعريرة تخضها والدم يتدفق والعرق يتصبب . . ليست شهوة ما فيها ،

ولكنه حنو عاصف وغامر ، يدها تتجه بلا وعي لتبعد خصلات شعر يحيى عن عينيه المغمضتين ، والطبيب يتطلع إليها مستغرباً ، منتظراً المنديل على جبينه .

لم تكن غرفة العمليات بعيدة عن الممر ، وها هو وجه عجوز بلهاء ملتصق بالزجاج يحدق فيهم ، بعلائم الذعر والانتظار الممض .

لم تنته الزوبعة في جسد الفتى . راح يغمغم ويهلوس بغتة . ينادي أماً ، ويدخل في غيبوبة ، ممتلئاً بعرق غزير ، والعجوز تحيط سريره بذراعيها خائفة أن تمتد أيدٍ لخطفه ، وتطالعها بخوف ورجاء وألم وشكر . . تمتد يد ميري وتربت على رأسها ، وتشير بعمق وجهها إلى سلامة الفتى .

كان اسحق الذي تطوح ليلة أمس على أقرب مقعد ، قد صحا ولازم السرير ، مثل الأم ، ومثل عشرات الزوار المحدقين بمرضاهم ، والمثرثرين معهم ، والذين يقدمون لهم شتى المأكولات محضرينها من الخارج ، أو من حوش المستشفى الذي يعج بالنيران والقدور والروائح!

مرض يحيى لم يدم طويلاً ، فتعافى بسرعة مدهشة ، لكن السرير النظيف ، ذا الوسادة الناعمة ، وأطباق الأطعمة الشهية الوفيرة ، وعلب الدخان المقدمة من الزوار ، ووجه ميري ، كلها قد ابطأت علاجه ، وتفتق الجرح عندما سقط من فوق السرير وهو يدري .

كان يلتهم الطعام ، أطباق الأرز الممتلئة باللحم ، والمرق الكثيف الخضار ، أشياء لم يكن يصادفها إلا مهترئة مع شتى البقايا .

كان يتطلع إلى الأرز المطبوخ المتناثر ، ويجمعه براحته ويقدمه إلى جدته التي تلتمع عيناها بالفرح ، وتطحنه أسنانها ، الشيء القوي الوحيد في وجهها . .

لبد إسحاق بجانب سريره ، ملبياً حاجاته وأوامره ، فهو يضع النعال في قدميه ويقوده إلى دورة المياه ، ويطعمه في أيام علاجه الأولى ، ثم ضفر خدمته مع مساعداته لبقية المرضى ، فيهب لخدمة أي نداء أو تأوه ، مغطياً هذا ، حاملاً ذاك ، قابلاً عطاياهم المختلفة سواء كانت سجائر أم نقوداً صغيرة أم حتى وجبة خفيفة ، لقد وجد ان البقاء في المستشفى ذو منافع كثيرة ، وأعباء هينة .

من هنا لم يتأس كثيراً على تفتق جرح يحيى ، وود لو انه يصطنع مرضاً جديداً ، أو يبتكر علة مزمنة تجعلهم معسكرين في المكان شهوراً . .

لكن ميري لاحظت آلاعيب هذه الثلة المشردة .

كانت لمسة يحيى لاتزال تسري في شرايينها . كانت تلك الرجفة الغامضة تستيقظ معها في فراشها ، وتحلق مع مناديلها المطفأة ، وعطورها الصامتة في الخزانة .

كانت تتوجه للمرضى ، شباباً وعجائز ورجالاً ونساءً ، وتحس بعلاقتها الصلبة ، الواضحة معهم ، ولكن حين تقترب من الفتى تعود تلك الرجفة ، ويسري ذلك الهبوط في القلب ، وتحلو البقعة ، وتهفو الى ذلك الوجه الطفولي الشقي . كأن ثمة قطارا يصفر في عمق الليل والوحدة . كأن المدن الصامتة تنفتح عن أعياد الميلاد ، كأن وراء الثلج زهرات نارية . .

أدركت في لحظة من تجليات صلواتها الحارة ، إن ذلك الفتى مُهدى إليها من السماء ، وإن ثمة رسالة فيه . . أليس هو أغلفَ ، لا ينتمي الى الوثنيين ، ربته أم خرساء ، صماء ، وتركته بلا دين ، مثل الارض البكر التي تنتظر البذور؟ ألم تأت الى هذه الجزر لتنشر رسالة الرب ، ولم تجد سوى قلوب صماء لا تتشرب نداءاتها ، ورفضت أن تعتبرها إلا ممرضة للأجساد ، لا

قائدة للأرواح؟

كم حاولت أن تنزع التمائم وتمنع النذور والصلوات للاحجار والمياه والنخيل ، إلا أن ذلك السيل من العباءات والوجوه المقنعة والتعاويذ كان يتدفق في مجراه الابدي ، لا يقبل تحويلاً ورياً لصحاريه الكبار العطشى!

لتجرب رسالتها في هذا الطين البشري الذي لم يتشكل ، في هذه الارض البكر ، في هذه العائلة المقتلعة من تراثها ، الحلقة الوسطى بين الحيوان والانسان ، بين فوضى الروح ومشكاة العقيدة .

لقد جعلها التفتق المصطنع للجرح تغضب بغتة . حدقت في يحيى بدهشة واستنكار . وحين رأى عينيها الرائعتين ، وأنفها المستقيم الدقيق الشامخ ، ورقبتها البيضاء الناصعة المنتصبة نكس رأسه خجلاً وإعجاباً ولذة غامضة . وهي ارتجفت فجأة وسارت بتوتر .

في المرة الثانية ، حين شفى تماماً ، لم يقبل خطط اسحاق المهينة ، وأعد نفسه للخروج بكرامة .

لكن الممرضة الجميلة وضعت جسدها على سريره ، وخربشت بأصابعها في وجه العجوز بمرح ، وتحاشت عيونها وجه يحيى ، وابتسمت لإسحاق قائلة :

ــ «بأيش» تشتغلون يا أولاد؟

كاد اسحاق أن يضحك من لغتها ، لكنه قال بجدية :

ــ نحن نعمل في السوق ، نجر العربات ونحمل الاغراض الثقيلة .

ــ جر العربات هو الذي يسبب لكن الأمراض . . هذا «الصكير» لا يحتمل العربة «الثقيل» . . يجب أن يجد عملاً آخر . . عملاً أكثر راحة . حتى لا يتعرض جسمه . . لتمزيق «ثاني» .

ـ نعم ، هذا ما أقوله دائما له . تصوري مثل هذا الجسم وهو يحمل أكياس الأرز الثقيلة! ولكن ماذا سوف يعمل كاتباً في الحكومة أم متصرفاً في خزانة الشركة . . إنه لا يعرف الكتابة ، بل إنه لفترة سابقة كان يشبه جدته!

صدم يحيى لهذه الكلمات ، فاندفع إسحاق للكلام مرة أخرى :

ـ يا ريت NURSE تجدي له ، ولي عملاً هنا . . نحن يتيمان فقيران بجاه النبي المصطفى وعيسى عليه السلام!

٦

خرجوا من المستشفى بحزن .

كان يوماً شتائياً مريراً . امتلأت السماء فيه بالغيوم ، وسرى برد شمالي قارس . فوجئوا بالعالم ، خارج دائرة ميري ، لا مبالياً ، قاسياً ، لم تزل الطرق فيه تؤدي إلى البرية ذات الحشائش غير اللذيذة ، ونحو «السماوات» القذرة ، ويتراءى فيه البشر المنهكون الغارقون في أعمالهم الصغيرة الصعبة ، وتنبثق منه ثلل من الرجال والأولاد تنبش المزابل ، وتتعارك على الدجاج النافق وطيور الفخاخ الهزيلة .

وجد يحيى وجدته كوخهما شبه متهدم . ضربه الهواء الشمالي وأنغمس فيه المطر ، وتشكلت بركة طفحت فيها أغراضهما القليلة ، وكان عليهما أن يعرضاها للشمس المتوارية ، ويبحثا عن خبز لم تصله الأوحال .

حملت العجوز صرتها الفارغة ومضت إلى دروب الكلأ ، تهتز مثل دوامة تكاد أن تسقط على أحد جوانبها .

وجلس يحيى على أحد أضلاع الكوخ ، وأحس إن للسعف وخزات مؤذية لم يكن يحس بها من قبل .

تراءت قاعات المستشفى وردهاته ، وسمع موسيقى غريبة من الكنيسة ، ودقت الساعة الحائطية الكبيرة معلنة الوقت ، فتتحرك أقدام الأطباء والممرضات والطلبة بدقة ، وتتغلغل الإبر في السواعد ، وتنكشف العيون عن حبيبات حديدية صلدة ، وترامت الأجساد المتلوية الصارخة ، وطلعت ميري مثل الحنو فتخفت التأوهات والتشنجات .

لا يعرف لماذا خاف من عرضها . هل لأنها ستكتشف جهله وفقره؟

جاء إسحاق غاضباً ، فالشتاء أفسد كل شيء . الدروب الموحلة الممتلئة بالمياه ، والعريش الفارغ من حبة أرز .

صاح به :

– وأنت أيها الصامت . . الأبدي . . لماذا لم تنطق . . ولم تقبل بالعمل . .؟! أجل أنت متعود على لحم العصافير النافقة . . إن القطط تأبى أن «تخرمش» لحمها النتن . .! لا شك أنك تحب . . الجلسة قرب الخوص والهواء العليل . . يداعب وجهك . . ثم تلتقط أعقاب سجائر ملوثة . . يبصقها الحشاشون وأبناء الكلاب . . يا للعيشة!

لا يعرف يحيى كيف يعي ويضبط مشاعره المتدفقة اللاهبة . إن تنوراً يتشكل من حطب يابس وشرر مجنون . إن لغةً عرجاء تمشي في دروبه اللزقة ، تترنح وتسقط وتقفز مستعدة للركض الذي لا يجارى . .

إن هذا الرفيق الممتلىء صخباً لا يضع حرفاً ثميناً في قلبه . إنه عصف يطيح بمواعين نحاسية مُقرقعة ثم لا شيء . إنه لا يدرك أي وجه يتسلل إليه كل حين . لا يعرف أن ذلك الوجه الأبيض المتورد أزاح المزابل والحشائش

البرية والأسمال والأسماك الخائسة والأرانب النافقة إلى الأبد . لا يعرف أن الخوص يكاد يحترق قرب رأسه ، وان أسئلته تتدفق مثل الخيول البرية الوحشية ولا تجد سوى تلك الممرات تجري فيها .

لا يرغب في أي زاد ، ويسأل كل الجهات : لماذا هو مرميٌ هكذا في الفراغ الأرضي وحيداً ، بلا جذور ، بلا عكاز ، بلا اسم . . هل يبيع جسده وروحه على أول بائع يعرض شراءه؟ أيعطي ماعونه لأغراب يملأونه بما يريدون؟

أيشحن ذاته بموسيقى الكنيسة الحزينة وبسطور الكتيبات الكثيرة المرمية في كل مكان ، تحت رؤوس المرضى ، وفي الدهاليز ، والغرف ، والتي لا يفتحها أحد؟

هل يمضي وراء الشعاع الجميل الذي أعطاه الحياة والصحة والأمل أم يهرب بعيداً ، نحو سوق الصفارين يغوص في الرماد وشرائط النحاس والهباب وضرب المعلمين والزبائن؟

إن المقامات محفوظة للبشر . إن السمر والسود غير البيض ، والغرباء الممتلئون مالاً وعلماً غير المشردين ، ومن يضعون رؤوسهم على وسائد حريرية غير من يضعونها على الأرض ذات «العناصيص»(*) ، ومن يمتلكون لغة وسحراً غير الخرس الجياع . .

يصيح فجأة في ذاته :

- يا إلهي . . لا تبعدني عن تلك المرأة . . أعطني لحظة واحدة من حبها!

يتطلع فيه إسحاق مستغرباً ، ثم يضحك فجأة :

- ماذا بك؟ لماذا تكلم نفسك هكذا . . وتصرصر بالحروف وكأنك . . تطحن جوزاً؟! هيا انهض . . قم للعمل ، للبحر . . أيها الرافس للنعمة!

كانت ثمة شبكة تحت قدميه . هتف يحيى :

- أين . . العربة؟

- لقد استبدلتها بهذه . . إن البحر مليء بالأسماك . . سنغرفها من مياهه ونبيعها في السوق ولن نحتاج إلى أولئك البيض . . الكفار!

رمقه بدهشة .

تتالت الأسئلة ثانية : كيف يكون الكفار بهذه الطيبة ، يقدمون الطعام والدواء والأسرة والابتسامات المنعشة؟ كيف يصنعون فتاة مثل ميري . . هذه الحمامة الطليقة الخيرة؟ من هم الكفار حقاً ، أليسوا هم هؤلاء الذين ألقوه في هذه المزبلة ، وتخلوا عنه؟ أليس هم هؤلاء الذين يمرون به ، وكأنهم يحاذون طوفة أو جذعاً؟ هناك أُناس طيبون منهم كتلك المرأة ، عائشة التي لم تنفك عن تقديم الخبز والبيض له . إنها تمسح على رأسه . . يا للروائح الغريبة التي تصدر منها! ثمة زجاجات عجيبة تختفي بين طيات ثوبها ، أو تتوارى تحت فخذها ذي اللون الفاحم . . إنه لم يسألها هل هي كافرة أيضاً ، لعلها كافرة؟!

حدق في صديقه وسأل :

- هل عائشة . . المبروكة . . كافرة؟

دهش إسحاق وصاح :

- ومن الذي ذكر . . سيرتها الآن؟! يا لك من جاهل تائه العقل!

لعلك تريد أن تتزوجها ، إنها تليق بك . . تلك المدمنة على سوائل العطور ومياه الحلاقة!

- هل هي . . كافرة ، أجنبي؟!

- ولماذا تسأل ذلك؟

- لقد كانت تعطيني أكلاً . . كانت تحبني!

- وهل الكفار هم العطوفون فقط . . يا حمار!

- لم يفعلون ذلك ، ولماذا هؤلاء الناس هنا غير طيبين .؟!

عدل إسحاق «غترته» وكأنه يشحذ آلة عقله لاستخراج شرارات معرفية وضاءة ، لكنه تاه ، فصرخ :

- قم نذهب للبحر ، ودعنا من سيرة الكفار ، لعنك الله!

لكن البحر كان قاسياً كالمدينة ، بارداً ، ذا نتوأت حجرية معادية ، وهواء يتغلغل في العظام ، وماؤه الثلجي يقرص المعدتين الفارغتين ، والصدرين العظميين المشاغبين . .

الشبكة تنفرش فوق بقعة واسعة ، وقطعها الحديدية الصغيرة المعلقة في أطرافها ، تغوص سريعاً في الماء ، ثم تسحب بقوة لينتفض الماء منها وتتقافر السمكات الصغيرة القليلة بين خيوطها . .

(*) «العناصيص» : أسنان أحجار الطريق .

٧

كانا في طريق العودة إلى المستشفى .

إسحاق يتعكز ، هذه المرة ، على كتف يحى . ثمة جرح عميق في ساقه ، وألم شديد لا يصل إلى فرح قلبه لعناق الأسرة ودغدغة الأرغفة الكبيرة الساخنة .

الهواء البارد ، الذي يهب من فراغات وقارات ثلجية واسعة ، والنقع ، والجوع ، والملابس المهترئة ، والأقدام الحافية . . تصحبهما في الخلاء الكبير الضارب خيامه بين تجمعات الأكواخ وأبنية الشمال . . التي تبدو قصية نائية مثل حلم النقود الكثيرة .

أخذهما البحر وثقب شبكتهما وجسديهما . ألقاهما على الصخور المسنونة وهو يقهقه شماتة وسخرية .

يتأمل يحيى الشبكة الممزقة والجيوب التي لم تمتلىء ، والكيس الحاوي على بضع سمكات صغار . .

كان يأخذها إلى عائشة المبروكة ، ويضعها على [تاوتها *] المعدنية السوداء ، ويتأمل كوخها الفارغ إلا من حصير ، و«جولة**» ذات أعمدة ثلاثة مهتزة . لكن عائشة لم تكن مهتمة بالأكل ، كانت تشرب ذلك السم ، من تلك الزجاجة الصغيرة التي تكاد تنفد ، وحين شوى لها السمكات ، كانت زجاجة العطر التي تنسكب في حنجرتها مثل ماء النار قد نفقت . فهجمت عليه صائحة :

- بِــع هذا السمك . . واشتر لي زجاجة!

كانت تتضرع إليه ، ولم تقترب من أي سمكة خائفةً من رحيل النشوة .

كان الهواء يضربه ، ورفيقه يتدلى على كتفه . كان يبصر سكان الأكواخ ، ويطل في عرشانهم الخاوية ، وحشود أطفالهم تغرز أظافرها في المواعين ، وصرخاتهم تتفجر طوال الليل ، وتندلع الشجارات ، ويسرق بعض الرجال أقراط زوجاتهم ليتعتعهم سكر زجاجات العطر والخمرة المحلية الرديئة في الطرقات ، ويرقص السود وعمال الفرضة في العشيات حتى ينهارون تعباً ، ويصحون مبكرين ، متوجهين إلى البحر ، حاملين الأكياس الثقيلة التي تفتق أجسادهم . .

كانت الأسئلة الكثيرة الكبيرة تملأ رأسه . ويجد الأفق لا يجيب ، والبحر صامت ، والنخيل يغرق في العتمات ، وأهل الحي تأخذهم الطرق المليئة بالعصي ، والعجلات ، والمآذن والتسابيح ودخان الحشيش والقيود والدم ، ويغرقون في النوم ، والأكل والشجار ، ولا أحد يجيبه ، ويرى أقرانه يحملون الدفاتر والقرآين والكتب ، متجهين إلى الأبنية المحاصرة بالأسوار والأسلاك الشائكة ، وينفجرون في الظهائر كالسيول المحصورة متدفقين إلى اللعب والشجارات والساحات .

كانت عربة علي المدخن تندفع في الخلاء كالفرس . علي جثم فوق ظهر

الحمار بإزاره المخطط القذر ، وفانيلته تكسو جزءً من صدره ، وعصاه الدقيقة تشعل جسد الحيوان . ابنه جلس في العربة وقد تدلت ساقاه ، ولبس لباساً صوفياً محكماً ، ووضع غترة لفت فوق رأسه ، وبان هيكله النحيف مثل النتؤ الملحق بالعربة ، وبدا سعاله ونهيق الحمار وصيحات الأب كصحبة متلازمة .

توقف علي قربهما . . رمقهما ونبس بكلمة :

- أركبا!

إنه رجل صموت ، جذوره الفارسية لم تعطه إمكانية الكلام العربي الواسع ، وحين يتحدث مع عائلته كان يتشاجر ويصرخ ويعطي الأوامر فحسب ، وعندما يجن الليل ينضم إلى ثلة لعب الورق في دكان مرزوق ، ويتأمل ورقه ويلقيه بصمت ، فيما بقية اللاعبين يتجادلون بصخب ويهزأون من بعضهم البعض .

جلسا مع ابنه غلام . وكان الرمل البحري البارد لازال متشبثا بخشب العربة ، ورائحة العشب والقواقع لاصقة به .

تأمل يحيى صلابة علي . ساعداه طويلان قويان ، وصدره واسع ، ورأسه متضخمة بشعره الوحشي المتهدل ، بعكس ابنه الهزيل الشاحب . .

فكر يحيى بأنه لم يخلق للعمل الشاق . يبدو جسده الهزيل العظمي غير قادر على الصمود في شتاء البحر ، وبين صخوره الملساء الحادة ، ولعل إسحاق انقذه أكثر مما أنقذ نفسه . أما علي ، هذا الفارس المنطلق بعربة الرمل ، الذي يندفع بها فوق التراب والحصى ، وهي تطرطش بالرذاذ الرملي ، فهو وحده الذي خلق للكدح في الطبيعة الضارية ، وانتزاع لقمته منها بقوة وحيوية .

أنزلوهما عند المستشفى .

حين رأت ميري القادمين حدقت بيحيى لحظة بدت بالنسبة له كدهر

طويل .

هي أيضاً كانت تفكر فيه ، وعلى نحو مختلف . فهو لقية الإيمان وامتحان الرب ، الذي سلمته الأقدار الغضة إليها لكي ينتقل إلى عالم الروح ، والصفاء . حين غاب رافضاً عرضها تألمت لأنه سيعود إلى مملكة الأميين الوثنيين ، ويتقطع الجسر بينهما إلى الأبد وقد تراه ذات يوم يجلد نفسه في الشوارع ، أو يجر امرأته المحجبة بحبل!

الآن هو عائد غير مريض أو جريح ، يتطلع إليها بشوق ، كأن لقاءً طويلاً تم بينهما وانقطع . يا للفتي ونظراته الدافئة العميقة المليئة بالامتنان . كأنها معجزته التي أنهضته من بين الأموات!

ترنح إسحاق بلذة على أحد الأسرة وراح يرمق بوله الممرضة الأمريكية الأخرى «جين» . سألته بالإنجليزية :

– ماذا أصابك؟ ما هذا الجرح العميق؟

فقال بمرح :

– أريد وجبة كبيرة ياnurss قبل ان تداويني .

ترجمت لها ميري كلامه فابتسمت .

كانت جين أجمل من ميري ، انها من تلك الفاتنات الأخاذات وكان مرضى المستشفى يتمنون أن تقوم أصابعها بتشريح جلودهم!

كان خداها يتألقان كخوختين ناضجتين فيصيح إسحاق :

– يا ألطاف الله . . أرحموني يا عالم!

---

* التاوة : صفيحة معدنية للشوي .

** الجولة : آلة الكيروسين .

٨

كان عهداً جديداً ليحيى . مملكة مضيئة تنفتح . ثوب الممرضين الأبيض ، الحذاء المرهق للقدمين الحرتين سابقاً! الملابس الداخلية التي تفوح بالجدة والطزاجة ، قاعة الدرس الصغيرة الممتلئة بالمقاعد ، الزملاء الصبية المشاغبون والهادئون ، الوجبات الصغيرة المنوعة ، الكتب التي ينضح ورقها بالرقة واللذة ، كلها جعلته يحلق في السماء ، ويجزم بأن ملاكاً مد إليه جناحه أو يده ، وأخذه الى عالم الحب والسعادة .

وعندما يعود مساءً الى عريشه ملتقياً الجدة ، رائياً صرة حشائش «الكاكول» المغبرة وقطع الخبز اليابس والبصل بقشوره المسودة ، والشكل المؤلم الرهيب للجدة ، يذهل ويصاب بالغم والحيرة . وكأن يد الملاك تلك تركته يهوى الى أسفل سافلين ، حيث الحضيض ، ولا حبال من نور .

وما أبطأ حركته وهو يتوجه الى مجمع الأكواخ ، فكأنه يقاد الى المسلخة القريبة حيث يلعب الأطفال بالقرون والكروش والجلود ، فيتأفف من الحفر والمزابل والروائح .

وما أسرع حركته وهو يعود الى المستشفى رغم سهام الريح الباردة ، وجوع الصباح .

ويروح في ذلك المعبد الحجري ينهال على الكتب الصغيرة ، متشبثاً بوريقاتها البيضاء اللامعة وبتلك الخطوط الافعوانية المتراقصة ، وكأنه يلتحق بقطار ذي دخان حاد ملتوٍ ، متجهاً نحو البراري البعيدة .

يدهش مدرسه اللبناني من التبتل الدراسي لهذا الشاب ، ومداومته وحفظه السريع وأكله للمعرفة أكلاً ، وتجاوزه لأقرانه السئمين من الكتب والحروف ، وبمطالبه المعرفية المتزايدة ، وضجره بالبطء .

كانت الآيات المقدسات من الانجيل هي موضع القراءة والاملاء ، يقول المدرس نصيف البستاني :

(هنيئاً للمساكين ففي الروح ،

لأن لهم ملكوت السموات

هنيئاً للمحزونين ، لأنهم يعزون

هنيئاً للودعاء ، لأنهم يرثون الأرض .

هنيئاً للجياع والعطاشى الى الحق ، لأنهم يشبعون . .) *

كان صوت نصيف يرن ، وفمه يقذف الحروف باشباع منغم ، فكأنه يغني ويرقص مع هذه الجمل الصادقة ، ويأتي التكرار كضربات عنيفة مُذّكرة بتيار اللغة المتدفق ، وتنفجر كلمة (هنيئاً ، هنيئاً!) ، مثل المطر الهاطل نبت في إثره الكمت والحشائش والأشجار ، وتنفتح الجنان عن خدود جميلة وثمار متألقة . . وكأن العطاش الجياع المتدفقين من غابات الأكواخ والمستنقعات يطلعون متوجهين الى صواني الأكل المُمدّدة على مدى النظر .

كان يحيى يوسق الكلماتِ ويغمغم بها ، مأخوذاً بأجراسها ، لامساً إياها

بسن قلمه ، مسيطراً عليها في الفضاء الأبيض ، مفكراً ان سكان الأكواخ كعلي المدخن وأبنه غلام وعائشة وسالم الاسود وغيرهم سيندفعون ذات يوم ليسكنوا البيوت والقصور والحدائق . . وسيكون الله معهم . . يعطيهم العالم كله .

هل شغلته أنهار المعرفة التي يسبح فيها وينتشي ببلوراتها المضيئة عن ميري؟ هل كانت عيونها لا تطل معه في تلك الصفحات؟ هل تاريخ العالم انفصل عن كيان المرأة النوراني المقدس؟ هل توقف ساعة عن زيارة إسحاق ورؤيتها وهي توزع الأدوية والألحفة والمحبة على المرضى؟

كان هو يتعلم أيضاً تنظيف الأدوات الطبية ورش المطهرات ومساعدة المرضى وتبديل أسرتهم وجمع حوائجهم ، وترتيب مخزن الأشياء . كان يعمل بجهد بالغ ، وكأنه يقدم عرقه مقابل كل ذرة حرف يتشربها من هذا المكان . .

يذهل من إسحاق واستمرار جرحه ، وعدم شفائه! وضحكه المستمر ، وكثرة النقود الصغيرة التي تتوفر في جيوبه ، ومن علب السجائر الفارغة المتناثرة دائماً تحت سريره . . وما أكثر ما ينام ويأكل ويقهقه ويثرثر مع المرضى والزوار ، ويهدىء المعارك التي تنشب ، ويقدم خدماته الوفيرة لأي وجيه وغني يجثم في الغرف الخصوصية .

وبدا ان ميري نائية عنه أبداً . ان هذه الفتاة ذات الجسم الرهيف الرقيق تنطلق مثل الفراشة ، لكن بين المُقطعّين والساقطين من الاثقال والأمراض ، وتكاد أن لا تلمحه . . حتى لو صارت يداه تقدم لها القطن وتحمل عنها الإبر والقطن والأدوية . ان هذا الجفاء المفاجىء يحيره ، وهذه اللامبالاة بوجود تضنيه . . فيعود يتأمل ذاته ، فيرى انه لم يعد قذراً ، فها هو الماء يتدفق على

رأسه من الرشاش ، وها هو الصابون يعرف الطريق الى جسده لأول مرة ، وأية أوساخ تجمعت .

وأي حيوان كان؟! ياه ، إنه يلمس الجبن بدهشة ، ويتطلع الى مكعبات الزبدة بذهول!

إن المدرس هو الوحيد الذي يشغله عنها ، ففي ملكوته ينسى حتى نفسه ، ويرهف السمع بكل حواسه ، وتتطاير الأسئلة الكثيرة منه ، انه يريد أن يكون من هذه الدائرة المتوهجة نوراً ، التي تصنع كل الأشياء المذهلة ، وتقتحم البحار والقارات ، وتحلق في السماء ، وتجعل الحديد ينطق ، والسوائل تستعيد البصر والأحلام والضحك .

ماذا يريد من أولئك الناس الذين ألقوه على قارعة الطريق ، ويثقبون جلود المرضى بأسياخ الحديد ، ويضعون التمائم على الزنود والصدور ، ويحبسون النساء في الغرف المظلمة والألبسة السوداء الثقيلة؟

إن هذا الأب الذي اكتشفه مات من أجله ، وأعطى الحب والرحمة للبؤساء ، ولم يلق الحصى على جسد الزانية . . ليست هنا لفظة «نغل» القبيحة .

إنه سيكون من هذا العالم الجميل والمضيء . إن جسده قد رشحه ليعرف أباه ، وشكله يعطيه جوازاً لرحلة الاختلاف ، وتاريخ طفولته الدامي غضب لا يكف عن الغليان داخله .

---

* انجيل متى ص ٨ .

٩

تطلعت ميري الى فستان جين الأبيض ، وقبعتها الصغيرة الجميلة ، حيث بدا وجهها أخاذاً صاعقاً .

كانت تتأكد من انطباق الفستان على خصرها ، واتساعه ورفرفته عند قدميها ، فتدور مثل الفراشة . .

قالت ميري بهدوء صارم :

ـ ألاحظ يا عزيزتي ان علاقتك بتوم قد تعدت لحظة التعارف والبراءة الأولى؟!

ـ إنه معجب بي كثيرا ، ولا أستطيع ان أرفض دعواته . . خاصة اذا كانت ممتعة!

ـ ولكنك تعرفين اننا اخوات جئنا لمهمة مقدسة ، وليس لإقامة صداقات مع مهندسي وموظفي شركة النفط!

ـ ما رأيك بالفستان الآن . . أليس شبيها بثوب الزفاف؟!

نهضت ميري من فوق السرير وأمسكت بساعدي جين المنطلقين ، وحدقت فيها :

ـ انك تنزلقين نحو علاقة ستهدم مستقبلك المهني ، ستفعلين مثل بعض الأخريات ، تتزوجين وتغادرين أخويتنا ، ثم تصطدمين ، وتحاولين ان تعودي إلى عملك هنا بلا فائدة . .

توقفت جين عن الحركة ، وبدا وجهها جاداً وواثقاً :

ـ ليكن ذلك يا عزيزتي ، هل تعتقدين ان هذه الحياة الصارمة . . حيث . . حيث حشود المرضى والمجانين والمتخلفين والقذرين ، وحيث الدماء والأعضاء المقطعة والأمعاء الطالعة من البطون ، ثم هذه الغرفة الصغيرة . . الحقيرة! ونومها المليء بالكوابيس . . هل تعتقدين ان هذه الحياة مثالية بالنسبة لشابة جميلة مثلي؟!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد انني انتظر أية لحظة يتقدم الي فيها شاب مناسب لأفر وأهرب من هذا الجحيم!

جلست ميري على السرير ثانية ، واجمة ، وخيوط باردة وساخنة تتجول في عروقها ، كأنها كانت تهبط في هوة دون ان تصل الى القعر . كانت مذهولة وحزينة .

تذكرت كيف طلعتا معا من نيويورك ورأتا تمثال الحرية الهائل ، والمدينة الكبيرة تغوص تحت الماء ، والضباب والدخان والأهل والحضارة تتوارى ، فتتحدان معاً ، تنسيان غربة السفينة والمحيط والركاب والسفر وتتبادلان الأوراق والثياب والأحلام والرسائل ، يتقارب رأساهما ودموعهما وذكرياتهما ، فينسج الماء والدموع والدم والانجيل ثوب الأخوة المشترك .

دهشتا من البلدة ومبنى المستشفى وسجن الجدران المحاطة بالمقابر والدكاكين القميئة الضئيلة ، وأصيبتا بذعر من هذا الدبيب الدائم داخل

ممرات المبنى المزدحمة بالمرضى وزوارهم واغنامهم وجمالهم وقدورهم التي ملأت الساحات بالدخان والصراخ والثغاء . .

كادتا أن تموتا غماً من الصمت الأخرس العميق الذي يتفجر بعد غروب الشمس . ان البلدة تغرق في النوم والظلام ، ولا أمل في متجر مفتوح ، أو مقهى يطل على الشارع أو يزهو في أعماق الأزقة وليس ثمة معزوفة تنطلق على الأرصفة ، ولا مهرجون يلعبون بالأشياء والموسيقى ، ان البلدة تموت وتتحد بالمقابر ، ويبدو انها الآخرة والحساب العسير!

وفي النهار تتفجر الصيحات من مآذن المساجد ، ليندفع كورس جماعي يزلزل الفجر والنائمين ، وتندفع بعده أصوات الحمير والكلاب والديوك والبشر ، ويخرج اناس يقطعون اجسادهم ويضربونها ، ويتزاحم آخرون على الحصى والقبور . .!

كانت جين تبكي ، وتسقط في حضنها ، وتصيح :

ــ أريد أن أعود . . أن أعود الى الوطن . . الآن!

ثم جاء الراديو ومعزوفات اذاعة لندن وأنبائها ، والكنيسة واحتفالاتها ، وبهجة قدوم موظفي شركة النفط ، الذين غيروا كل شيء بسرعة ، فاندلعت الزيارات ، وأعطت وجوه الشباب الناضحة بالرواء حياتهما طعماً رائعاً .

ذهبتا الى مدينة النفط ذات البيوت الصغيرة الأوروبية والمصابيح والحدائق والمتاجر الواسعة وانفجارات زجاجات النبيذ الوافرة وأعياد الميلاد الصاخبة . كن حشداً من الطبيبات والممرضات الراهبات وموظفات دار الاعتماد البريطاني ، وقد استقبلهن موظفو الشركة بحفاوة بالغة ، وراحوا يتغلغلون بينهن ووجدت جين لنفسها صديقاً بسرعة كبيرة ، في حين بقيت هي على خطوط التماس العاطفية ، تسدل نوافذها وتغلق أبوابها ، خائفة من أي طرق ملح .

كانت جين تتدلى بين يدي توم الشاب الوسيم الطويل ، المتدفق حيوية والصاخب ، فراحت تغرق كل أحزانها وغربتها في نكاته وعبثه . .

لقد اندفعت بسرعة شديدة . ولم تعد حياة الرهبنة تعيش في ذاكرتها ، وفجأة بدت لها نزقة متلهفة للذّات واللهو ، تعجز عن أداء نوباتها وواجباتها بصورة معقولة .

وجدت ميري نفسها وحيدة حزينة . لم تعرف لماذا ، هل لأن جين انساقت وراء رغباتها المحتدمة في ذاتها هي أيضا ، وغدت أكثر شجاعة وبساطة في التعبير عن عواطفها؟ . . أم لأن رفيقتها تركتها وحدها في دروب الآلام الجماعية؟

ما الذي يدعو جين الى التخلي عن طريق الرب ، عن هذه الرسالة العظيمة لخدمة البشر ، لتغرق في سكر محموم وتتقيأ في الفجر وتصحو في الظهيرة وتعجز عن ادخال الحقنة في ساعد المريض بهدوء ودقة؟ هل لأنها أصبحت تبدو سعيدة ومزهوة بالحياة . . في حين انها هي تنكمش وتبدأ خطوط متعرجة صارمة تظهر في جبينها؟

سارتا نحو الكنيسة غير متباعدتين ، عبرتا ممراً قصيراً واذا بهما امام مبنى صغير ، احتشد اناس عند بوابته .

كانت بضع نخلات منحنية على واجهة الكنيسة من جهة الشرق ، وكان ثمة خلاء يقود الى مقبرة المسلمين الواسعة وراء المستشفى .

ان قبور المسلمين البسيطة الشاسعة ذات الحشائش الضارية ، تحدق فيهم . وكان الجمهور المسيحي قد تجمع في الساحة وراح يدخل الى جوف الكنيسة . . أسرعت جين بالبحث عن توم حتى وجدتهُ . التصقت به وتركتها تماما . حصلت على مكان في أحد المقاعد ، وراحت تصغي الى عظة

السيد تومسون ، الكنائسي والطبيب والصديق .

الكنيسة ليست سوى جدران ومقاعد ومنصة وصليب كبير . جدرانها عاطلة عن أية اشارات أو رسوم . المؤمنون ، من مختلف بقاع الأرض ، تجمعوا وانصتوا .

كانت تصغي وتحلق : كيف جاء هؤلاء من كل مكان؟ لم يغرسون الخير في هذه الأرض البعيدة الغريبة لولا حب المخلص؟

ها هو السيد تومسون يتحدث بلطف ، ويذكر الخبز والاتحاد في الألم وصنع الخير . وتتراءى السفن تتقلب بين أمواج البحر ، والقناديل تهتز ، والوجوه المضناة تصل الى الأدغال الحارة والصحارى وشعاب الجبال . .

تتطلع الى صورة تومسون ذي الرأس الأصلع والأنف الكبير والنظارة السميكة . انه الأشيب العازب أبداً ، المبتسم دائماً بين اللحم والعظم المُفتّت وتشنجات المرضى . . لماذا لا تستطيع ان تكون مثله ، لماذا تطغى شهواتها الصارخة وحنينها العارم الى الرجل؟

أية قوة يمتلكها هذا العازب الغائص بين الدم والدمع ، ليقول عظة بها ابتسامة جذلة؟ هل لأنها إلتحقت بعملها حاجةً ورغبة في مساعدة أهلها؟ ألا تكفي هذه التضحية . .؟ لماذا تريد ان تتمرد على صخبها الداخلي ، وكأن العمل الشاق فرار متعمد من الجسد وأسئلته؟ . .

انتهت العظة ، وتقاسم الجمع الخبز والنبيذ ، وطلعت سكرى من رياح الكلام المنقضة على وحدتها ، كانت اللذة الملعونة تصعد من بين الصخور وتضاريس الصبر ، وكان وجه جين المدفون في ذراع توم ، وتداخل أيدي الرجال والنساء ، تبعثر جزئياتها . .

حينئذ رأت يحيى يتطلع فيها . عيناه اخترقتا كل الحشد وتدلهت بها .

١٠

مشت إليه . وقفت أمامه ، فتساقطت نظراته أرضاً . تلك الشهوة التي بدت في عينيه توارت خجلاً . هل يكون هذا الفتى الغض الساذج هو غايتها التي قطعت المحيطات والقارات والأسوار والأحلام لتحصل عليها؟

أتسلم نفسها الى هذا القادم من الأكواخ ، الأمي قبل لحظات ، القذر قبل ساعات ، الوثني ، البرعم المتعلثم؟

لماذا ترخص نفسها الى هذه الدرجة ، لماذا تتهاوى الى هذا الذل؟ هل رأت كيف ان تخليها عن رسالتها كان سيسلمها الى الخراب؟

ألم تكن أسوأ من جين؟ أليست العظمة ان تواصل صعود الجبل ، وتأخذ هذا الفتى روحاً نظيفة وليس جسداً فانياً عابراً دنساً؟

ان شظاياها المبعثرة تعود الى بوصلة النور . والروح النقية تشق طريقها من بين الأوهام والأوحال .

سارت به الى مقعد بممر جانبي . راحت تتحدث عن سيرة المخلص . كان يحيى يرى أمما تمشي وتتعذب في البراري والمدن ، الجيوش الأجنبية تقتحم

أبوابها وأسرَّتها ، وتخرج كنوزها وأسرارها ، والسياط تلسع الوجوه والألسنة . .

وجاء رجل من البرية ، لم تكن لديه سوى الكلمات راح يعيد بها ترميم الأرواح الخربة . عظاته تصل الى العظام وتجمع قلة من البشر الطيبين ، التي تخلت عن أموالها وأسرها وسارت وراءه . كان ينشر الحب ، ويرى الأطفال والنساء والحيوانات كائنات ودودة جميلة . ولكن الأشرار لم يتركوه . . فتقاسم الخبز مع أصدقائه كما لو كان جسده ، الذي أعطاه هدية للبشر لكي يتعلموا التضحية .

أحس يحيى بأن الرجل هو أبوه الغائب ، ولمس أصابعه المضناة من المشي الصعب في الصحراء والضنك والجوع . انه قد عاش طويلا مع هذه اليد والتراب والدم . كانت الأشواك والمسامير والفئران والحيات رفاقا دائمين له . ولكنه لم يكره الناس ، ولم يلعن أمه في سره . بكى لوحدته وألمه ، لكنه ظل يرنو للفرح . .

دهشت ميري من هذا الوجه المأخوذ بالحكاية . لم تبصر مثل هذه الإرتعاشات وهذا البريق أبدا . لم تر مثل هذه الطفولة النازفة . لكأن يحيى يسير في المشهد المقدس ويتلقى حصى طائشاً ، هو ذا الحمل الوديع الصاعد لسماء الرب ، مغسول بعطر الألم ، ترك الأهل والأشياء والأموال وتبع المخلص . .

يقول :

ـ لديكم النور . . والسعادة . . انتم لا شك قادمون من الإله الطيب . . المبارك . . هنا لم أر سوى الحرمان والشر . . كان ثمة أشقياء يحومون حولي . . لا ليعطوني كسرة خبز . . انتم توزعون الدواء و . . الحب . .

ينتبه ليد ميري الرقيقة الصلبة ، فيمسكها بيده الخشنة الممزقة ،

يحتضنها ، كأن نهرين من ألم الشمال والجنوب يندغمان في تدفق مشترك .

تقول :

ـ لن يكون طريقنا سهلاً . سوف يكرهك أهلك . .!

ـ تركوني إلا من عجوز غائبة عني . .

ـ سيتخلى عنك أصدقاؤك!

ـ لم أعثر إلا على واحد . .

ـ سوف تضطر للاعتراف أمام الناس بأنك غيرت دينك!

ـ لم يكن لدي دين لأغيره . .

ـ الناس حولك لهم دين . . صارم!

ـ لم يعلمونني إياه . .

ـ ولكنهم سيأتون اليك ويفتشون صدرك ويحاكمون قلبك ولسانك!

ـ عندما أؤمن حقاً . . لن يستطيع أحد أن يبدلني . .

ـ هناك أشياء كثيرة ينبغي ان تتعلمها . .

ـ سوف أتعلم . . وأبحث . .

اندلعت لحظة هدوء عميقة .

عادت ميري بغتة الى هواجسها : هل هذا هو الوثني القادم من المزبلة أم هو العاشق الرائع؟ لماذا غدت الرسالة هادئة الآن وتفاقم نداء القلب والجسد؟ هل لأنها رأت في البرعم رجلاً سوف يكون لها من بين كل الرجال؟ لماذا هي سعيدة ومحبطة في آن؟ لماذا انتبهت لنظرات المرضى والزوار وخطوات الساعة والعمل؟ أين هو كيانها الخاص وملكيتها العاطفية؟

١١

كان إسحاق يجمع ثلة من لاعبي الورق من المرضى ويغلبهم منتزعاً علب سجائرهم وعلكتهم وأطباق أكلهم الخارجية الشهية .

كان ثمة حمالان عمانيان مصابان بالفتق ، وفلاح مكسور اليد ، وسكير امتلأ بالسُكّر .

كان إسحاق يترنم :

ــ طوبى لمن أطعم الفقراء والمساكين! طوبى لمن عطف على الأيتام . .! بوجبة أو زجاجة!

قال أحد العمانيين :

ــ والله . . غلبنا هالملعون!

كان إسحاق قد بدأ يصبح وجها مألوفا في المستشفى . لم يعرف أحد بالضبط ما هي مكانته وما هو عمله . فهل هو مريض أم ساعي بريد؟ أممرض يحمل المياه الساخنة والإبر ويهرع لتنفيذ أوامر الأطباء ، أم هو رجل مصاب؟ هل مهمته هي تسلية المرضى وإرشاد الزوار ومنع دخول الغنم والجمال أروقة

المبنى أم هي انتزاع الأكراميات وبيع السجائر والمياه وكتابة الرسائل وحفظ الأسرار؟

وفي كافة الأحوال ، فإنه غدا مطلوباً من الجميع . وكانت الصيحات تتفجر لاستدعائه ، وكان غيابه يسبب صداعا وفوضى . .

اقترب يحيى من الأسرة المتجمعة ، التي وضعت بينها طاولة وتدفقت عليها أوراق اللعب وعلب العلكة الصغيرة الملونة . وكان صوت اسحاق مرتفعاً بالفرح والانتصار دوماً!

أحس انه انقطع عن صديقه . لقد بدا غريباً عنه ، وهو بحاجة الى إنسان يصغي لأسئلته . ماذا سيقول له ، بل ماذا سيقول للناس؟ سيقولون انه التحق بالكفار الأغنياء المتسلطين القادمين من وراء البحار ، وانه باع نفسه بدريهمات ما! كيف يمكن ان يعرفوا عمق اختياراته؟

يذكر دهشة صاحبه من الكتب السميكة التي راح يحملها الى الكوخ . وكان يجرحه بأسئلته الفظة : «هل تستطيع هذه الأوراق ان تستر عشتك؟ هل تقدر أن تعالج جدتك أو تجلب فتاة الى حضنك وتبني لك بيتاً؟ بغتة حدثت ضجة عند البوابة وهرع الناس والممرضات ، فاندفع يشق كتل الفضوليين والمشاهدين .

كان ثمة صبي يتضرج بدمه . يلبس ثوباً أبيض شفافاً ويتأوه . تم وضعه على سرير في غرفة للعمليات . وهي غرفة صغيرة لا تتسع إلا لسرير وطاولة الأدوية . بدا وجه الصبي من وراء الزجاج مرعوبا .

وتجمع أهله حول النافذة يصيحون بفزع . أمه ذات العباءة والبرقع تصرخ بصوت عال نادبة عضو الذكورة ، والأب منهار ألماً وخجلا .

دخل يحيى الغرفة ، فتح الطبيب ساقي الصبي ، فبدا قضيبه مقطوعاً

نازفاً مثل حنيفة الماء المكسورة . راح يخيط الجرح ، ويحيى يناوله أكداس القطن المبلولة بالسوائل المطهرة فتعود إليه متحولة الى كتلة دم متصاعدة .

ماذا فعل الختان بعضوه؟ ياللصبي الذي سيظل يعاني طوال حياته! هل سيستطيع ان يتلذذ بامرأة؟ هل كان الختان أعمى؟

لو أن يحيي يندمج بجماعة المسلمين ألن يطالبوه بالختان؟ هل سيتركونه هكذا بجسد كامل لم يبتر جزء منه؟ ألن يضحكوا عليه بقولهم «ختانة القدوم»؟!

انه يتقلب بين قطن الرعب وصرخات الفتى وألم الطبيب واشمئزازه ، لعله يدخل ذات يوم مدينة بيضاء لا يقلب أحد أعضاءه وصفحات قلبه ، ويُترك في دروبه الحرة الواسعة . ولعله يغوص في هذا العالم ومستنقعه الواسع لتطارده أسراب الذباب والخناجر .

يصمت نهائياً عندما يمر باسحاق ، وتأخذهما رحلة العودة الى الأكواخ ، والآخر يثرثر عن الختان الأبله والصبي المسكين .

ان يصير مسيحياً الآن لم تعد قضية روحية محضة!

١٢

أصيبت ميري فجأة بمغص شديد . تركت المرضى والإبر والأسرة وزرع الوصايا وجثمت في فراشها . حدقت في صورتها بالمرآة ، فسمعت الرعد في السماء .

«ومضت سنة . . من عرفتُ يحيى!»

تناولت مسكناً ، فشاهدت صورته البريئة ، ودمعه الغزير في أعماقه ، فذعرت .

جاءتها حالة من الشفقة والحب والخوف ، فتبعثرت شظاياها الداخلية عبر ممرات روحية ساخنة . سمعت أصواتاً تدعوها للتوغل في كفاحها العنيد ، وجاء حبر بلا لون وهز أوراقها ، وترك بقعاً سوداء ، وبكاء وارتفع الصليب فوق البرق والبريق ، وبدت عروق البشر تنزف بالصياح والألم ، فأحست برغبة جارفة في البكاء ، وظهر خيطان من الماء والنار . .

كانت الرواتب المرتفعة للراهبة الممرضة المهاجرة كبيرة . علاوات الغربة والبعد والألم . وقالت «سبع سنوات من الهجرة ثم عودة مرفهة ، ويتحول

وضع الأسرة تماما ويُبعد الأب» ، ولكن الضمير الذي اشتعل بعد استلام النقود ، وصرخات التأنيب ، جعلاها تغوص في بركة الدم والأعضاء المقطوعة ، وتمزق الروح .

وكان السيد تومسون يلح عليها دائما . ويذكرها برسالتها العميقة . وها هي الآن حالة ناجحة بشكل مؤكد غير انها تتردد وتخاف . تسأل : ما الذي سوف يجري لهذا الشاب الصغير؟ كيف ستكون حاله بين شعبه؟

ها هو الألم يترنح داخلها ، فتتعكز على بقايا أمل وتمشي نحو مكتب السيد تومسون لعله يعطيها إجابة شافية .

خيوط المرضى لا تتوقف . عربات محملة بالعظام واللحم الذابل . عجائز عميان وكتل من التغضن تدب وتتحسس الجدران . روائح التخدير والديتول لا توقظها . الصليب وحده يسير في الغمام وبين الشوك والدخان والدم والأسئلة . والبكاء منذ أول الزمن والسياط لا تكف عن أكل الظهور ، والعبيد يُحملون في أعماق السفن ، مصفدين ، طعاماً للقطن والخنازير ، والصلبان على الصدور والقبور ، والحلم مؤجل حتى نهاية الأفق الكوني ، وتتشابه مراراً السطور والأفاعي . .

تأملي هذه الروح العاصفة في قلبك ، هذا الحب الأزلي للجسد وللمتع والحب ، هذا الشعر المتمرد ، المتناثر في الحقول حراً ، كيف صار الآن حبيس المخاوف والردهات؟

أعادها المكان للذل : سلاسل الرحلة الى هذا البلد المجدب ، وعيش العائلة المزري ، ومطالب المدير التي لا تنتهي .

كان تومسون غارقا في جداول خسائر المستشفى المتفاقمة . عطايا الكنائس البعيدة والمؤمنين فيما وراء البحار شحيحة ، والمرضى يتدفقون

كالغبار الدائم هنا ، وليس ثمة من أمل سوى بروز صور ساطعة لمسلمين يتنصرون ، تجعل هذه النقطة الضائعة من الخريطة الكنائسية تتوهج . .

كان يعرف حالة يحيى ، فبادرها فوراً :

ـ هل هناك أخبار طيبة؟

ـ إنه متردد يا سيدي . .

ـ كيف؟! ألم تقولي انه يمتلك حماساً واستعداداً لم يسبق له مثيل؟

ـ نعم ، ولكنك تعرف المحيط المعادي ، والمخاوف التي تنزرع فجأة في النفوس . . ومسألة الإيمان . .

ـ ألا تدركين ما نعانيه؟! المستشفى تنزف وتنهار بشكل رهيب ، وأمثلة الإيمان المسيحي المتفجرة بين هؤلاء الوثنيين معدومة تماماً! وانتم لا تعيرون هذه المسألة الهامة انتباها مفيداً . . نريد مسيحيين شجعاناً ، متحمسين ، نريد قدوات تفجر هذا العالم الراكد الغارق في التخلف والبلادة .

تراءت شخصية يحيى لميري الآن في منظور آخر ، أحست بالضغوط الهائلة المتناقضة المتفاقمة فوق روحها .

كرهت ان تتسرب مسألة الإيمان الى جداول الربح والخسارة . ان الحب العميق غدا سلعة ، والمدير ناء عن مشاعرها ، وكانت جملة واحدة تلوب في ذاتها ، وتسبب لوعتها وغثيانها . إنها الجملة غير القادرة على انتزاعها من داخلها ، وقذفها أمامه :

ـ أرجوك . . اعفني من هذا العمل!

لكنها لم تقلها ، لأن انفجار الجملة سيعني عودتها الى بلادها وحرمانها من هذه الفرصة للعيش وللتجربة الروحية .

انها الآن تدرك محنتها : انها لا تستطيع ان تدفع يحيى في طريق التجربة

الوعرة ، لأنها قد تخسره . إنها لا تستطيع أن تتاجر به ، أو تجعله كبش فداء لإرسالية خائبة .

١٣

تهالك يحيى على المقعد تعباً . ممرات المستشفى ممتلئة بالأقدام المسرعة والتأوهات . يسند رأسه بتهالك منتش . يكاد ان ينهي نوبته الآن . غرق بين السواعد المبتورة والبطون المفتوحة . الدم على كل الألحفة ، والفرح يطلع من بين كتل العظام والألم والعرق .

إنتبه للصيحة المفاجئة :

ـ هيا يا يحيى . . تعال الى السيارة!

كانت ميري تتكلم ، وقد أمسكت حقيبة ، ومعها السائق الحاج سلمان ، تبعها بلذة ، ها هي حمامته تهدل أمامه . لتأخذه الى الغابة أو الى أوجار الوحوش ، فمعها يحلو المساء الهابط والغروب الأنيق .

الحاج تنحنح ، ويمسك المقود ، وتبدأ السيارة في الاهتزاز والمضي . عيناهما لا تلتقيان ، هي مشغولة نازفة عبر كل هذا الصراخ ، والركض بين الغرف والجثث .

منذ ذلك البوح وهي لا تتحدث معه . غير انه غرق في قراءة الأنجيل وحلق مع سير الآباء والمصلحين ، وتحول الى ناسك في محراب البستاني ،

والى عصفور يتتبع الثمار النبوية في قمم الأشجار . .

كان السائق يسرع ، وهي متوترة ، تحدق في ساعتها ، وترقب الطريق الذي انزلق نحو أشجار وبساتين ، اهتزت العجلات تحت وطأة الحفر ورؤوس الحصى المدببة المنتصبة ، وراحت تتوغل في أرض شرسة ، انفتحت عن مستنقعات ووحل ، ورأوا ثلة من الأولاد تلعب ، وصاح البوق ، فصاحوا معه ، وأحاطوا بالجسم الحديدي الذي يطرطش بالمياه الآسنة ، ورأى يحيى الصبية ، أقرانه السابقين ، أشباه العراة ، جسماً لا متناهياً لوجهه وأيامه ، لكن الجسد الشقي يضحك ويقبل السيارة . .

كادت ان تغوص في الوحل . قرقع حديدها السفلي على حافة حفرة مؤلمة ، وأخذ الحاج يسيّرها ببطء . .

انفتح الدرب عن أبنية غريبة ، أعمدة وجدران لمبنى عتيق متهدم ، ثم ظهرت ثلة من بيوت السعف المحاطة بالزرع . توقفت السيارة بين الأشجار ، ومشى الحاج يقود ميري نحو أحد تلك الأكواخ ، وهو يكاد ان يتوارى عن البشر ، وحمل يحيى صندوق الأدوية والضمادات ، وسار وراءهما . .

الحقول الواسعة ، والأشجار الكثيرة الخضراء المتعانقة الأغصان ، وحشود الطيور المتشاجرة على أسّرة المساء ، والأكواخ اللطيفة النائمة في حضن الطبيعة البكر ، أسكرت يحيى وأحس بخد ميري يضيء ويشارك الشمس الغاربة النور والألوان .

عندما دخلوا الكوخ سمعوا نحيباً جماعياً مريراً . كانت ثلة من النسوة ، لابسات الأغشية والسواد ، يشكلن جوقة باكية . كن منتشرات ، مرتميات على الحصير والأرض ، ويتحاوطن جسداً مغطى بشرشف دام .

كان تحت ذلك الشرشف أنين . وبدا ليحيى انه ذبيحة ما . وسمع في

ذات الوقت صراخاً من عريش مجاور . صوت رجولي زاعق متنمر هناك .

إندفعت ميري الى الشيء المسجى ، فوضع عندهما الحقيبة . كشفت بسرعة ليرى فتاة ممزقة . وجه شبه مقطع متوار ، إنتفاخات بارزة وأخاديد عميقة . احدى العينين تنزف . . الجسد كأنه حقل محروث .

دار رأسه ، واذا ضربة قوية على ظهره . . كاد ان يسقط . . انتبه لرجل صارخ . ذات الصوت . تبعه رجال آخرون يحاولون إمساكه . وكادت قبضته ان تصل الى رأس ميري المذعورة . لولا انه أُنتزع من الكوخ ومازال يصرخ :

ـ دعوني أقتلها . . الفاجرة . . أخرجوا الرجال وإلا حرقت البيت كله!

وجد يحيى نفسه مع الحاج عند الباب ، في جوف البرد والألم والدهشة . انفجر أذان المسجد القريب غريباً وحاداً . كان الظلام قد هيمن ، وغابة الشجر تطلق أصوات الحشرات والضفادع .

رأى يحيى الرجال قادمين من الصحراء ، يسبون النساء ، ويضعونهم في الغرف الخلفية ، وفي الأقبية ، وتحت الثرى ، وتحت الأفخاذ والأسياخ . وليس ثمة من صوت منير . .

صاح بالحاج :

ـ ماذا يجري . . هنا؟ لماذا تفعلون ذلك؟

وجاء صوت الحاج هادئاً رتيباً :

ـ إنها تعمل الحرام . .

أشعل سيجارة وبدا السائق كأنه يتكتل في جسده النحيف ويضغط المعطف حوله ، شاعراً بلذة مزدوجة .

ماذا يوجد هنا؟ لم كل هذا الصراخ ينبعث من الأكواخ؟ لماذا كل هذه الحشود من الأطفال العراة ذوي العيون المهدورة والوحيدة والمتوارية؟ لم كل

هذه المياه الخضراء النتنة؟ . . لم كل هذه النسوة المخدرات المدفونات في الحفر؟ هل تستطيع ميري ان تعيد ترتيب ذلك الجسد الممزق؟ هل يستطيع نورها ان يبدد ضربات السكين والأنين؟

لم يستطع أن يقف أو يجلس أو يصمت ، واستمر الليل في نشر الرماد وتوزيع الجمر ، وجاءت كتل الغيوم معبأة بالبرد والهواجس ، وكان الصراخ قد انطفأ ، ولم يزل الأنين يتغلغل من بين السعف الى سمعه ، مثل موجات خافتة ، متوترة ، لاسعة ، دائبة :

ـ آه . . آه . . آه . . آه . . .

يذهل من السائق الذي لم يزل يدخن . جمرة السيجارة تكبر وتختفي ، كأنها ومضات الجسد الأخيرة . راح يتمتم وقرأ آية من القرآن وصمت . فانطلق هو يهذي : «يا أبانا الذي في السماوات . .!» موجهاً رأسه نحو الأعالي ، فيرى الغيوم تدب في بحر من العتمة وكأنها جيوش غازية . تأخرت ميري كثيرا ، واختفى نباح الرجل تماماً ، وظلت الآه مثل الحرارة الشاحبة في السلك ، وراحت تومض بخفوت شديد ، ورغب ان يتدفأ في السيارة لكنه ظل في البرد .

جثم عند الباب ، وخيل اليه ان صوت المرأة قد اختفى ، لكنه شعر ان ثمة ضجة في رأسه ، كأنها أزيز حشرات ، تمنع اصغاءه . وأخيراً عاد صوت المرأة يلسعه بديمومته ، وكل حرف يطلع من تنور ، ويتجمع في سلك نابض .

ـ آه . . . آه . . . آه . . . .

أين يهرب من هذا الصوت؟ وكيف يستطيع سلمان أن يتماسك ويقف صلبا كأن شيئاً لا يعنيه ، مكتفياً بتمتمة ، ثم ينتظر بسلام؟

وبدأ الصوت يتغير ،إنه يتقطع ، وتتباعد حروفه ، ويبدو خافتاً ، ونائياً ،

ولكن كمية الألم تفاقمت ، وفي كل حرف خزان من النار :

ـ آآآ . . . . ه. . . . . . آ . . . آ . . . آ . . . . ه . . . .

وفي ذلك السكون الشامل إلا من هذا المنشار الخافت ، تفجر فجأة بكاء جماعي ، اهتز الكوخ وكأن النسوة كن يأكلن الجريد وتراب الأرض . .

ظهرت ميري ، ولم يستطع ان يتبين ملامح وجهها وبدلتها في الظلام ، ولكن حين دخلوا السيارة ، واشتعلت مصابيحها ، رأى امرأة أخرى معه ، كتلة متصلبة من العروق والعظام ، ووجه خشبي مروع ، اختفت منه العينان الفاتنتان ، وحلت بركتان من الرماد ، وغدا بياض ملابسها قانياً ، سقط رأسها الى الوراء . وبكت بصمت .

السائق بحث عن الدرب المتلوي ، الهابط ، الصاعد ، الغارق في الماء ، الذي يقذفهم بأغصانه وقططه ، بهدوء عميق ، وكانت عيناه تبحثان عن ملامح الدرب ، مُلقياً الدموع والمآسي وراء ظهره .

المرأة تتدفق لغتها الغاضبة الصاخبة ، فيمسك يدها بحنو .

١٤

في الليل لا صوت لكمان أو بيانو ، في هذا الرماد الشاحب المرير ، في حشود البطانيات السوداء الغليظة ، في مدى المقابر ، لا مكان لرقصة فرح ، والجسد الصبي المقطع بالمنشار الأبوي يُسلم للتراب منزوع الذاكرة ولعض الدود الجائع ، والفتاة التي ركضت لحبيبها وسط النخيل والشجر المتآمر ، رصدتها العيون المخيفة وسلمتها لساطور الأب ، ليحل النحيب وتبقى عباءات السواد كالغبار البشري . .

في الليل لا راديو يلعلع بأغنية حب ، بل هناك النشيج ، وتمتمات المرضى ، وصمت الحاج سلمان ، الذي تمكن من اخراجهما من ذلك الدغل ، وإيصالهما الى أنوار المستشفى ، وقعد على الكرسي منتظرا أية هبة لمصيبة أخرى .

أخذ يحيى ميري الى غرفتها ، مساعداً عظامها على الوقوف والمشي وعيونها على رؤية ردهات المكان ودربه المضيء ، حيث لاتزال عتمة الكوخ والضوء الأصفر للقنديل ذي الزجاجة الممتلئة بالهباب ، تهتز في عيونها

المرتجفة عندما اختلطت المقاص وإبرة الخياطة بالدماء وقطع اللحم المتفتت ، وبصوت المرأة المرير ، حيث الآه تنشر روحيهما في عتمة مشتركة . .

الآن تنهض البدلة الدامية . يوصلها لتغتسل حين نام المستشفى ، وبدا السرير المقابل لسرير ميري خالياً ومرتباً ، منتظراً جين اللاهية بعيداً . .

انهمرت المياه عليها في الداخل ، فراحت تنتصب وتزيح البقع والروائح ، لتبقى الأصوات ممزوجة بشرايينها في أنفاقها السرية ، ومازال عتمة الكوخ . والطريق تتراءى مثل الكوابيس المستعادة في النهار ، فراحت تمسك جسدها وثدييها المنتصبين ، وتحس بارتعاشة غريبة ، وتتذكر أن يحيى هو الذي أوصلها الى غرفتها ، وتعكزت عليه ، وتمازجت أنفاسهما وماؤهما في الدرب .

حينئذٍ كان الجسد مثل فرس جامحة في السهول . ينطلق برعونة وسرعة في المدى الأخضر الحر . كان الدم والألم والجراح والموت مدعاة لاستثارة الشهوة والحياة . وفي ذلك الحقل من الرماد والسواد تلوح شراراتٌ وزهرات .

وكان الشاب ينتظرها على السرير الآخر ، متسائلا عن حالها ، لكنها لبست شيئا آخر ، بدلة نوم جميلة ، وتدفق شعرها حول رأسها مثل أغصان الياسمين ، وطلعت عيناها من بحيرة السكون والغبار ، حمامتين تدلان السفن الضائعة للموانيء ، والعبق الرائع يخرجهما من بحيرة العرق والدم ، لكن اللحظة التعسة كانت داخلهما ، تحجز الكلام والابتسام .

أحست برغبة شديدة لكؤوس النبيذ من زجاجات صديقتها ، وكأنها راحت تستعيد أيضا صوتاً جذلاً من روحها ، وتدفق في كأسها شيئاً من حريتها .

تطلعت بأمومة الى يحيى الذي نكس رأسه خجلاً ، وتناول كأساً منها ،

خائفا من التحديق في كل هذا الجمال المهاجم .

كان الكأس يتلألأ في يده ، شفافاً ، ناعماً مثل غيمة ، تدفقَ فيه بروعة العنبُ الأبيض البارد ، ودهش لأن يده الخشنة لاتزال بها آثار عض الكلاب وهي ترفع تمراً مائياً سحرياً .

تفتح الراديو ، وتنساب أصوات رقيقة . موسيقى طالعة من قلوب شغفة بالسعادة والفرح . لغة عصافير مبتعدة عن المقابر ، أصوات طفولة غير محبوسة بالمستنقعات والخرافات . صياح عشاق أحرار . .

الكأس العذبة والموسيقى الرقيقة والبياض والمدن الحرة القصية والمرأة . . كلها غدت في متناول روحه . .

أية نار وجنة هذه؟ لم يتنقل بين التنور والجليد بهذا الومض القاتل؟ لماذا تأخذه أقصى أشكال البشاعة والألم وأعلى ذرى الجمال والفرح في ليلة واحدة ، ألا يتصدع؟ لماذا لا يجلس قربها لتكتمل النشوة؟ ياه . . إنه متعطش لإزالة كل الإبر والأشواك والضنى والسلاسل من بشرتها المضيئة .

لم تعد بينهما طقوس متعادية ، بل هما في طقس مشترك محلق فوق دبابيس الأرض .

لكن المرأة استعادت جديتها فجأة . وتحول الرفيق المحب الى ممرض ، وخروف تائه عن الكنيسة . ظهرت بحارٌ من الكوابيس والصلوات والخنادق والحروب ، وجحافل الصلبان المتوغلة في صحارى الكفار ، وطلع السود من وراء مزارع القطن ، والصلبان المحروقة والجثث . .

١٥

قل إن الليل سيأتي . قل إن الرفقة الحلوة في جفاف الزمن ستلد زهرة . قل إن الأنبياء سيظهرون هنا مثل الخبز الطيب واللبن ، وان السماء ستغدق حناناً على اليتامى ، قل ان الجدري والتراخوما لن يأكلا وجوه الأطفال . .! لكن الصباح صامت ، والنداء الخفي لم يأت بعد ، والأموات لم ينهضوا ، ومسيرة الشوك مستمرة . .

أخذه إسحاق لينعش صدره . يوم الإجازة هو الوحيد الذي لا يريان فيه مستنقعات الدم .

كانت ميري تتراءى نائية ، وبعد أن صنعت له جناحين من نبيذ ونور ، تركته يسقط ويترنح على أرض الظلام والبرد .

صاح إسحاق :

ـ ماذا بك . . تحمل الدنيا على رأسك؟ لقد أدمنت أوراق هؤلاء الكفار!

كان الأطفال أمامهما يهزون شجرة الكنار* ، ويضربون أغصانها بالحصى ، فتتساقط ثمار قليلة صغيرة يتنازعونها بشراسة .

رأيا في البستان المهجور مجموعة من الصبية . يدخنون ويسطون على الأعشاش ، ويمارسون العادة «السرية» في الزوايا . .

ضحك إسحاق ، وصرخ هو :

ــ أنظر! هذا هو عالمك . . شعبك الفقير الرديء . . كيف لا تريدني أن أنسحب من ميراثه؟ لقد وجهت وجهي صوب الذي صنع النور والآلات! صوب البياض المحلق في السماء!

مشيا ووصلا السوق . كانت هناك حشود من البشر المصطفة على جوانب الشوارع ، تحدق في مسيرات دامية .

رجال أشباه عراة يضربون أجسادهم بالسيوف وكرات الحديد المليئة بالسكاكين الصغيرة . روائح العرق والدم وبراز الخيول تملأ المكان .

إسحاق تغلغل بين المشاهدين المثرثرين ، ولامس ثلة نسائية مسيجة بالعباءات الكثيفة ، وتطل من براقعها عيون جميلة .

حين اقترب أهل الحيدر برؤوسهم الصلعاء الحليقة ، وثيابهم البيضاء الممتلئة ببقع الدم ، وسيوفهم المشهرة عند رؤوسهم ، لامعة ، متلألئة ، تنتظر اثلامها لحظات التوغل في الحياة . . سحب يحيى اسحاق بشدة ، وفر هارباً! .

ولم ييأس إسحاق :

ــ تعال . . سأقودك الى فرح كبير!

قاده نحو ثلة من الأكواخ المتراصة ، الكثيفة ، المنزوية .

هنا تجثم نسوة وراء الأبواب ، يحدق فيهن مستغرباً . جالسات داخل عباءاتهن ، يلبسن البراقع ، ويثرثرن بشكل مائع ، ويمضغن اللبان المتفجر .

همس له :

ــ أدخلْ مع واحدة!

ـ لا يمكن!

يهتز اسحاق ، ويرقص أمام امرأة ، راحت تسبه ، ثم ضحكت ونهضت وأمسك يدها ، وبدا جسدها مثيراً بتكوينه الشامخ المغري . احتضنا بعضهما وهما يمشيان الى كوخ ، وأغلقا عليهما الباب ، وندت أصوات إسحق السعيدة .

جاءته امرأة وتطلعت فيه بنهم . انزلت البرقع فرأى وجها وسيماً ، سمرة تنضح ببريق شهي ، وأنف رائع .

أمسكته وراحت تدلله وتتطلع فيه . سحبته الى عريشها ، وكانت فسيفساء من دم وأعضاء وصرخات تلوب فيه وتشكل أحماضاً بركانية ، ولايزال أهل العزاء ينزفرن دمهم ، والشمس مطلقة السراح ، وأنين الفتاة المقطعة يتسلل من بين الخوص ، وبدا المكان مقبضاً ، بذاك الفراش المهترىء ، ولم تكن ثمة زهرة في شعرها ولا عيون مليئة بالحنان ، بل جسد تمرن على ايقاعاته الآلية الفظيعة . عرت جزءها السفلي وانتظرته . .

أنزل بنطلونه ، غير ان الشهوة غائبة .

تعرت المرأة تماماً وقالت انها لم تفعل ذلك إلا له .

رأت شيئاً غريباً فيه . صاحت :

ـ أخرج من هنا . .!

أيقن ان صراخها بسبب جموده تجاه إغرائها ، لكنها أشارت بيدها لأسفله :

ـ أنت نجس . . أيها الكافر غير المختن!

---

* شجرة الكنار : النبق .

١٦

تمضي السيارة الى بيت ضحية جديدة . الحاج سلمان يمسك المقود ويتمعن في طريق الجسر ، الذي يشق البحر الى كتلتين كبيرتين واسعتين ، إحداهما تمشي نحو قرى ذات أشجار ، والأخرى تمتد الى حدود الشمال المائية المفتوحة .

ميري تحدق في المرئيات وكأنها لا تبصر شيئاً .

اذا كانت أعطت أصابعها الى جراح المرضى ، فقد أعطت روحها لهذا الشاب رفيق رحلة الحقيقة . ان الصبي الذي كان أخرس يغدو معلماً . ان البستاني لا يستطيع ان يجاري رغباته المعرفية .

ثمة رجل آخر من أبناء الأغنياء اقتنع بذلك ، لكنه متردد وخائف من أهله . أما هذا فحر وشجاع .

تطلعت اليه :

ـ أنت مستعد لتعلن سرك؟!

ـ نعم .

ـ ستتجه الى الكنيسة وتقول ذلك أمام حشد ، ويجري لك التعميد وتنضم الينا الى الأبد!

ـ نعم . . .

ـ وستحمل الصليب في رقبتك ، وتجهر بدعوتك . . ولن نتحمل نحن أية مسئولية ، لم نخدعك ، لم نغريك! وقد تخرج من المستشفى ومن الكنيسة ولا تراني . . انني لا أعدك بشيء . أنا امرأة نذرت نفسي للرب!

أصابته هذه الكلمة بالوجع ، وكانت السيارة تمشي بأضطراب ، وعينا السائق مذعورتان ، وتبحثان بصعوبة عن ملامح الأزقة .

صاح يحيى :

ـ لماذا ، لماذا؟

ـ منذ ان كنت في بلادي أعلنت ذلك . تطوعت للخدمة ونشر رسالة المسيح في الأرض .

ـ ولا يمكن ان يتغير هذا أبداً ، أبداً؟!

ـ هل أنت تريدني أم تريد ديني؟!

كاد ان يصرخ «كلاهما!» ويضيف «هل هي رسالة أم قنبلة؟ حب أم وجع؟!» .

توقفت السيارة عند أحد البيوت . قطع الحصى والسعف تعاونت لتشكل جداراً منخفضاً . والباب المفتوح يطل على حشد من العباءات والبراقع والعيون المحمرة الباكية .

الجسد هذه المرة موضوع عند باب الحجرة ، وأنينه مختلف :

ـ أم . . أم م م م . . . . أم م م م . . .

تندفع ميري إليه ، وثمة امرأة شبه مخبولة مترنحة ، لم تلبس سوى ثوب

نسائي متداع ، كانت مثل نخلة طويلة عجفاء أو جريدة طويلة بوجه عظمي بارز .

عندما انتزعت اللحاف الرقيق ذهلت من الجسد المُبقّع المحمر ، حيث تغلغلت قبل قليل رؤوس أسياخ نارية . كان الحديد قد انطفأ في هذا الورد . .

الأم تشرح :

ـ مكثت . . مريضة طويلاً . . طبيب جاءها . . لم تشف . . عدة شهور . . وهي راقدة . . عيني عليها! . . لا تتحرك . . ترتجف دوماً . . يئسنا . . أحضرنا الملا الذي قرأ عليها . . قام بكيها . .

صاحت ميري :

ـ وها هي الآن تحتضر . .! لماذا فعلتم ذلك ، لماذا ، لماذا؟

الفتاة تدخل رحلة موت فظيعة . تئن أنيناً متواصلا مريعا . . فتلفت يحيى الى ميري ويديها وصليبها ، لكن الأنين ظل ينشر رأسه . تطلع الى الفضاء الممتليء بالنجوم ، البعيد ، المحايد ، البارد ، وحدق فلعل مخلصاً ينزل ، أو ضوءاً يتغلغل في اللحم البشري المشوي ، لكنه لم ير شيئاً ، لإن عينيه امتلأتا بالدموع .

راح يمشي مذعوراً في الحوش ، يكاد يخبط الأجساد ، ويعوى عواء حادا ، والصراخ الذي ملأ المكان أذاب انفجاره . فضرب الأرض وعمود سرير ، واندفع الى الخارج صائحاً ، وميري تلحق به . .

ـ لماذا تقودينني الى هذه الأمكنة؟ لماذا تعذبينني؟ ألا ترين انني طفل؟ ألا ترين اننا عزل من السلاح متروكين في تنور العالم . . وإننا نتعزى بأصنام وأسماء وأشياء . .

ـ لا ، لا تقل ذلك!

ـ لِمَ لـمْ لم يأت المنقـذون الى هذه الفتـاة الصـغـيرة . انظري الى وجـهـهـا البريء . . انظري الى شفتيها اللتين لم يقبلهما رجل ، الى صدرها الذي لم يمتلىء بحليب الأمومة . . لماذا يختطفها ، لماذا؟

ـ أسكت!

ألتصق رأسه بصدرها ، اختبأ خوفه وحزنه في حديقة الأمومة ، أحس بعزاء عميق .

١٧

هي الآن أمه وعمره ، فلتأخذه بعيداً .

لم تعد في الحياة متعة سوى رؤياها . هذا الوجه المشعشع بالبروق والرواء ، هذه العيون الساحرة ، هذا الأمان العميق ، والدفء الكبير .

عندما يصحو في كوخه ، ويسمع حشرجة جدته ودبيبها نحو العمل المجنون ، يصيح بها لكي تبقى ، وتستخدم نقوده ، تدمدم وتمضي لمواعيدها مع مطر السماء وكلأ الارض الكثيف . حينئذ تنعش صورة ميري وحشته ، وتأخذ بيده الى سلام الحمام .

ليكن دائماً معها ، في رحلة الروح والجراح ، لينشر المحبة والصحة فوق الأكواخ وأزقة الجنازات . ليردد مزامير الغرام وحده ، ليستعير صوت النبي وهو يبحث في الليل عن حبيبته لفراشه البارد!

حتى لو امتلأت النفس بالشكوك ، وصار العزاء القادم من وراء البحار ، مثل العزاء الدامي في الوطن ، فإن وصفتها ستظل دواء لعمره . .

في ذلك اليوم المرعب كان الحاج سلمان على غير عادته ، مضطربا ،

ولكن ليس على الفتاة الصغيرة المحروقة ، بل عليه هو :

ــ كيف تغير دينك . . هذا أكبر حرام!

ــ لم يكن لي دين ... كنت مثل البهائم ، أسقطوني في كوخ . . والآن صار لي دين!

ــ ستذهب الى جهنم!

كانت عيناه غريبتين ، متسعتين على غير العادة ، وكان يرتجف! ذُهل . وزاد ذهوله حين رأى رجلاً ذا ملابس حديثة يحوم حوله . يحدق فيه ثم يمضي . كذلك قالوا له إن الملا عبدالرزاق مؤذن مسجد الحي يسأل عنه!

السائق الحاج يقود السيارة بهدوء ، غير انه يتحاشى رؤيته . صار يتجاهله ، البرية واسعة ، والأرض ملأى بالأعشاب وقطعان الإبل ، وثمة بضع خيام متناثرة ، والطريق الاسفلتي المتعرج مثل لسان طويل ، والشمس ترنحت فوق الأفق ناثرة أبسطة متوهجة .

وصلت السيارة المدينة المرتفعة المسيجة . البيوت من خشب ملون ، والسقوف من القرميد ، والمداخن تنفث حياة ، والأحواش ممتلئة بالاشجار وألعاب الاطفال . ثمة بيض صغار يتأرجحون ويضحكون ويتعاركون فوق الحشائش .

دهش ، ورأى براميل القمامة ممتلئة ونظيفة .

أحس انه غريب . . وأبصر في أسفل الجبل عشش عمال النفط الكثيفة المتراصة ، وجاءت روائح وأدخنة فظيعة .

وصلوا ساحة امتلأت بقناديل ملونة وأشرطة ، وكان ثمة فناء واسع مغطى ، ترامت تحته الطاولات والمقاعد والمأكولات والبشر .

وجوه متوردة ، وسواعد مكشوفة بضة ، وكؤوس مترعة وبالونات طائرة ،

وموسيقى هادرة ورقص وقبل ، وخدم يوزعون الكؤوس والطعام والأنس .

جلس مبهوراً ، وانتعش بكؤوس النبيذ الوفيرة ، وجاءت رائحة ومذاق لحم الخنزير المشوي مذهلاً .

هل ينزل إلى أسفل الجبل يوزع الطعام ، أم يتغذى بلحم أهله؟ أيذوب في هذه الطقوس البهيجة أم يبتر جسده؟

يرى ميري مُحتضنة بين ساعدي رجل ، فيصاب بغم . . بدا مختلفاً عن الجمع المرح المتدفق ، قريباً من الحاج سلمان الذي رقد في السيارة عازفاً عن الحفل والشواء والشراب .

اقتربت منه فتاتان وطلبت احداهما مراقصته ، فتعثر بين قدميها الجميلتين المرحتين .

أخذته ، ودارت به ، وكان شعرها الأسود ووجهها الصبوح فاتنين ، لقد اقتربت من مناطقه الحساسة ، وأيقظت فيه مشاعر وثابة وشهوة قوية ودعته لزيارتها في حي اليهود .

لماذا لا تكون ميري مثلها ، وتغادر تصلبها وبرودها ، وتندفع ، وتقبل وتحضن؟

قالت الفتاة ان اسمها سارة ، وهي يهودية! وأبوها القادم من العراق أسس له تجارة مزدهرة في سوق المنامة .

دهش . هل قتلة السيد المسيح هنا؟ الذين فضّلوا اللصين عليه كيف يتجمعون معاً؟ كيف تتداخل اذرعهم وصدورهم في رقصات فرحة؟

حينئذ انتبه الجمع الى أصوات حادة . ضجة عالية تصعد من الحضيض . رأوا اضطرابا في عشش العمال وناراً مشتعلة!

١٨

امتلأت ردهات المستشفى بالناس . كان هناك ترقب لحدث مثير . بضعة جنود انجليز رابطوا في الساحة فجأة . جاء قومٌ غرباء راحوا يحدقون في المبنى وبشره .

إسحاق يدور على الحضور ويغمغم قائلا :

ـ سوف تحدث كارثة! السماء ستنشق وتقذف الارض الحمم!

المرضى يواصلون علاجهم وكلامهم ونومهم ، ملتفتين بين لحظة وأخرى الى نقلة الاخبار . نسوة ببراقع يضربن صدورهن ، ويتشهدن رافعين أكفهم نحو السقف . الممرضات يواصلن اعمالهن بهدوء .

ـ ترقب . . ما سيحدث للمرتد . . السماء ستسقط نجومها على هذه البقعة الكافرة!

رفع يحيى عينيه مذهولاً .

لم يكن لديه أي وقت للتأمل . صديقه يتطلع اليه باستفزاز وكراهية ، وذلك الوجه المنبسط المتدفق عفوية وسخرية تبدل في لمح البصر . كأنهما ما

سهرا طويلاً وما تبادلا الدفء والدمع .

ـ هذا ما سيحدث لك أيضا أيها المغرور!

نصله يغوص عميقاً ، يصل الى ينابيع النفس . . لم تعد تفرق الآن بين حراشف التمساح وضحكات الصديق . كيف تنقلب الزهرة فجأة الى حشرة؟ هو دون غيره يكرهه؟ لماذا؟ هل لأنه يغار منه؟ هل لأنه اصبح بعيداً عنه ومتفوقا عليه؟

تطلع الى السماء من النافذة . وجدها ممتلئة بالغيوم السوداء الثقيلة ، وثمة دمدمات فضائية مُروعة في الآفاق القصية ، واهتزازات تصل الى الاشياء ودواخل البشر .

السماء قد تكون فعلاً على موعد مع هذه اللحظة ، فترسل قذائفها النارية الى هذا المبنى القابع في زاوية صغيرة لا مرئية من الارض .

أمس كان الجو صحواً ، واليوم تلبدت السماء ، والتحمت كتل الغيوم الرمادية في سبيكة بيضاء مرتعشة بالشرائط المشتعلة .

بغتة سقط المطر مدراراً ، ودوى الرعد العنيف .

النسوة في الممرات والغرف الجماعية تصايحن ولَعَنَ الكفار!

وجاءت سيارة الى الحوش ، ووقفت عند البوابة الداخلية ، ودخل الرجل المنتظر وميري وتومسون ، وأسرعوا صوب الكنيسة . رؤوس المرضى ، والمارة الذين وقفوا في الممرات ، راحت تحدق في تلك الثلة ، وكانت السماء تعصف عصفاً شديداً .

أبصر الرجل المتحول . كان ممتلئاً ووسيماً . لبس بدلة اوروبية متأنقة ، غير انها اصيبت ببقعٍ من الماء والوحل . بدا متوتراً ومسالماً . .

جوقة المشاهدين اندفعت نحو الكنيسة ، وقفت في الممرات القريبة منها ،

تاركة مساحة كافية ربما للغضب السماوي .

جاء إسحاق يلبس معطفا ويضع جزءا منه فوق رأسه :

ـ سترون الآن . . كيف تُسحق هذه الكنيسة . . المرتد سيقتل . . اشهدوا المعجزة الإلهية!

راح الناس يتعوذون ويتشهدون ، وتعالت أصوات النساء ضارعة . . امسك يحيى اسحاق من ذراعه وصاح :

ـ كف عن هذا!

ـ لماذا؟ هل خفت . . لاشك انك ترتعد!

تدفقت مياه المطر فوق الارض . اهتزت النخلتان المتعانقتان فوق بوابة الكنيسة ، وحدث مس كهربائي أثار الذعر!

قالت امرأة بصوت مخيف :

ـ ألا ترون الكنيسة تنشق؟

وحدّق الحضور بقوة في المشهد ، وكانت سيوف المياه النازلة بضراوة ترن فوق السقف وتتدفق مندفعة نحو الساحة حيث تتجمع ، وتصير بركة ممتلئة بالشآبيب وكرات البردى .

المدرس نصيف البستاني كان يقف قرب الناس ، ويحدق في البركة الإلهية ، منشّداً الى العزف السماوي الجميل!

أهتز يحيى قلقاً . أحس بالأرض تهتز وتميد . اللعنات قد تنبثق بغتة على القوم الظالمين . البرق سيتغلغل منشاراً كبيراً يكاد بحصد رؤوس الكفار . ثمة وجوه مكفهرة في السماء .

يتحسس رقبته ، ويغمغم بأسم الإله .

١٩

ليس سوى ليل كثيف . أكواخٌ ونخيل ومياه ، والسيارة تشق الهدؤ بضجيج أليف ، وثمة جسر صغير يفصل البرية عن جزيرة امتلأت بالنخيل .

يتطلع إلى جسدها بلهفة . ظل جسدُها يناوشُ خياله ، وراح فمهُ يشرب نبعها .

قال : هي التي تريدني أن أكون محاذياً لطيفها . هي الخائفة من كسر أغلالها . هي التي تغوص في العمل والإبر والدم حتى تنهار على الفراش ، ساحبة الحلم من أفق عالمها . وأنا المُعّلقُ في الشهوة ، الصارخ كل ليل ، المنفجر في كل صباح ، لم أعد قادراً على الصبر أمام هذا البياض الوردي ، وهذا الزغب ، وتحت الصدر القافز للضؤ والبشر! يا للأنف الشامخ الجميل الذي لم يروض !

ذهب الشتاءُ السريع ، وكان برده الجميل مُهيجّاً ، وراح يتقلب ، وسريره يصّر ، وعيناه تعبتا من أكل الورق . تعرت صورتها أمامه ، وأحس بجلدها قريباً منه ، فقبلها بهياج . .

فكر : صار مثل فقراء حيه الذين يعانقون أي شيء . ويبحثون عن الأنثى في الصبية والغنم والأشباح . .!

قال : يا للبؤس ! مجمع هائل من بيوت الخوص ونباح الكلاب والقذارات ، والعباءات ، وبائعة اللذة كتلة سوداء في عريش ، هي التي تدلك على ساقيها المفتوحتين ، فأي شهوة تثور هناك ؟!

تغلغلت السيارة بين دروب ضيقة . هي ذاتها بيوت الخوص ، لكنها هنا جزء من حظائر البقر والغنم ، فتأتي روائح الروث فظيعة ، مهيّجة .

عيناه سقطتا على عنقها . طويلٌ ، مرمري ، يلمع في الظلمة .

تطلعت فيه وتصادمت نظراتهما . أحسّ برغبتها فيه . لم تبعدْ نظرها . فزّ قلبه .

كانت صيحاتُ المرأة هذه المرة مختلفة . الرجلُ الريفي قادهم إلى حوش مليء بالصبان . لم يكن ثمة سوى عريش واحد للبشر انفجرت فيه صيحات المرأة . اندفعت ميري إلى جوفه ، وبدت انحناءات جسدها وهي تخفض رأسها مثيرة له ، تصيبه برعشة .

المرأة تصرخ ، طلقها المتعسر الطويل يهددها بالموت . الرجال الأقرباء تكدسوا قربها ، وران عليهم انتظار ثقيل . النسوة بالداخل كن يتراكضن لتسخين الماء وتبديل الألحفة .

صوتُ الطلق مختلف : " وي ي ي ي . . .! " ، تتمدد بطول الليل وكثافة ظلمة الأكواخ وأفق النخيل الفاحم ، لهجة قروية غائصة في الألم الموحّد ، صوتٌ نسائي متميز ملتاع محبوس كثيراً وراء السعف . .

وأثار رجلٌ شيئاً أدهشه ، كان يقول لأصحابه :

ـ لماذا أحضرتم نصرانية . . هذا حرام !

لكن الرجال لم يعبأوا ، وظلت أعناقهم مشرئبة إلى باب العريش ، حيث سيطل وجهٌ ينبئ أما بالموت أو بالحياة .

وأخيراً أنفجر شيءٌ جديدٌ . صوتٌ مختلفٌ . زقزقة عصفورٍ وصيحة كتلة من لحم طري ودم . الوأوأة جاءت مغايرة لمنشار الآه الحاد . صاحت النسوة وأهتز الرجال ، ونهضوا يرفعون رؤوسهم إلى السماء يشكرون الله . وحين طلعت ميري ملوثة بالطمي النسائي والمراهم والأدوية ، رمقتها العيون بود وتهللت الوجوه . لكن لم يصافحها أحدٌ .

حرنت السيارة بغتة ، وأكتشف الحاج سلمان إنها خالية من البنزين ، فأخذ صفيحة ومضى . .

الليلُ لا يزال يعطيهما شيئاً من أستاره . وحشدُ موسيقى الجنادب والضفادع ورطوبة النخيل الندية ، لا تخفي دقات قلبيهما . . يتطلع إليها بثبات ، أصابعه تدب نحو يدها المترنحة على ساقها . يمسكها ، ويضعها في قبضته الساخنة . .

فكر : يا للراهبة المذعورة من دبيب الحب ! يا لجسدينا المتعطشين إلى الارتواء !

قالت : إنه يحاول ، وقلبي يخفق بخوف من انهيار الحواجز ! لماذا تتفجر صورة الرئيس تومسون وأبي وأمي وأخوتي . . ويشتعل عرقٌ في بطني !

ألتصق بها . الظلمةُ تخترق بأنصال وردية خافتة . السماءُ ترتعشُ لوناً ، وصوتاً ، وعما قريب قد يأتي الحاج بصفيحته أو لعنته ويفض الاشتباك !

أحاطها بذراعيه فنشعر بجسدها . ليونته وقوته والروائح الغريبة التي تصارعت فيه . راح فمه يقبل وجهها وهي مغمضة العينين ، كأنها نائمة ، أو غائبة ، وجعله الاستسلام الهادئ يغوص في الصدر ، ويتحسس الشفتين ،

فبدأت أصابعها تضغط برفق على صدره فكأنها تحجز نفسها عنه أو تعلن مقاومته . لكنه راح يحاول اختراق الجسد ، برفع بدلة التمريض ، وتحسس الفخذ الناعم اللدن .

كان تدفقه يصطدم بمقاومة عنيدة ، وبتفتح مفاجئ مرغوب . كانت صور المرأة الطالق المفتوحة للحياة والمثيرة ، تتقاطع ولوحات يسوع المنيرة . نداءات الأب تلعن لهاث الحب .

لكنها احتضنته ، هذا الوجه الجميل تمضغ شفتيه ، فتحس بوهج ولذة ، تكاد تسحب ملابسها الداخلية ، ثم تتوقف مرعوبة . تبعد يديه وتستثار . تقبله بنشوة وتفر .

الضوء تسرب بقوة ، وبدأت خطوات المزارعين تدق الرمل ، وتترنح الأبواب الخشبية بصرير مزعج ، ورأيا الحاج قادماً من بعيد ، يحمل الصفيحة الثقيلة ، فابتعدت ، والحرب لم تهدأ في ذاتها . .

٢٠

خذيني إليك يا حمامة الفجر . اعطني رمانة حلوة في هذا المساء المسكر . ها أنذا أعبر مستنقع الخوص إلى ضبابك الشفاف ، وأمصُ شفتيك الطازجتين المعبأتين بالندى والهدى ، دعيني افتح بوابتك البيضاء ، أعبر المدن النائمة الملآى بالسكاكين والمآتم والتمائم ، واندغم بخمرك وسكرك وشهدك ، أنضوي تحت لونك وساقك ، أصير حراً . .

هذه جدتي تخونني مع الظلمة والحشائش ، وتغيب عني ، وأنا أثرثر معها ، وأرقص ، وأحكي ، وهي مُغيبة لا تعطني مفتاحاً لأب ، ولا خيطاً أخضر لأم ، وحيي الذي يحاصرني ببهائمه ، يحدق فيّ وأنا أحمل صليبي ذائباً فيك . .

سأفتح بابك يوماً ، وأنضم إلى فراشك وأقرع أجراسك ، سأهرب بك إلى بلدك ، أو تذوبين في أرضي ، سنتحد جسدين ، ومعنىً .

أبي ليس منهم . لوني وزرقة عيوني تفضح انتمائي إليكم . ثمة بحار أو طيار بذر في أمي بذرة ورحل ، وهي تولهت به وسكرت بجسده ، أنا لا

أنتمي إلى هذه المقابر الشحيحة الجذور والأزهار، ليست هذه عصافيري المُغبرة، الكالحة، المرعوبة. إنني أسمع أمطاراً كثيفة وسيمفونيات. أبي جاء من وراء الغيم، من مدن النور والتماثيل والأحلام، وعشق أمي الفاتنة المفتونة، وفي لحظة غيب وعناق ولقاء النار بالماء، والشمس بالقمر، والتحام التيارات الساخنة المجنونة بالمياه الباردة، ولدتُ في جغرافيا الفراغ، وتكونتُ من عار ونار.

أنا لا أنتمي إلى هذا الخوص الكالح، ولقضاء الحاجة في الخلاء، وللأبواب الواقفة على زجاجات تئن، ونهارات رمضان المقفرة، ولحرق جثث الأطفال بالأسياخ..

هي وحدها قنطرتي، أعطتني الكلمة الروح، وها أنا انتظر الجسد المتكلم.

يمشي في ردهات المستشفى حانقاً. مؤمنون متعصبون يبتعدون عنه.

قبل أيام جاء مطوعُ الحي وأنبه. عائشة المبروكة دهشت، وقالت:

ـ هل سيعطونك أرضا أو بيتاً عندما تصير نصرانياً؟

ـ أبداً!

ـ إذن، لماذا تعذب نفسك. الناس هنا لا يفهمون!

وراحت تروي له قصتها. هذا الإنسان الرث له أيضاً مسارٌ متميزٌ من الألم!

كانت عبدة في بيت كبير، كل شيء به من غنى الأشياء وامتلاء المخازن، إلى الأولا د الحلوين. أحدهم اختلى بها مراراً حتى اكتشفوهما، وأعلن الابن رغبته بالزواج منها، فباعتها الأسرة إلى فحام عذبها واغتصبها..

«كان يأتيني في الليل ، كله سواد وقذارة ، ليطاردني في الغرفة ويجثم فوقي . . من الولد الحلو الأنيس ، ومن كلمات الحب والوله ، إلى صراخ جنون متطاير اللعاب . .» .

حررت جسدها بالكثير من العمل ، والسرقات ، والعض والطعن ، وكان الولد دائماً في بالها ، ويأتي لها في الحلم ، وتراه قادماً نحوها ، فتنتظره في أمكنة كثيرة ، وتمر عند بيتهم الكبير ، لكنه أبداً لم يأت إليها . . فجلست في العشة تبحث عن الكيف والرجال .

يمشي في الردهات . آهات المرضى تنزله إلى التضاريس المسمومة للأرض . يبصر إسحاق ورجلاً غريباً ، هو نفسه الذي كان يحوم قربه .

اندفع إليه صاحبه السابق وأمسكه بود وقوة .

ـ تعال يا رفيقي . . لقد ذهبتَ بعيداً . . لقد عملت شيئاً عجيباً ، لم يجرؤ عليه أحدٌ من قبل . .!

لم يعرف كيف يجيب . تحدث الرجل الغريب بثقة :

ـ أنت شاب صغير يا يحيى ، وهؤلاء الكنائسيون لهم ألاعيب كثيرة في صرف الشباب عن دينه . . سوف نوفر لك عملاً خارج هذا المكان كما وفرناه لإسحاق ، وحينئذٍ سوف تبتعد عن شباكهم . .

غضب يحيى :

ـ أنا اخترت هذا . . أعجبت بهذه الآراء ولم أخدع !

ـ إن أحداً من هذه البلاد لم ينحرف مثلك . . أنت الوحيد الذي تهت . . وآخر تافه هرب بجلده خارج هذا الوطن! وأنت لا تستطيع أن تهرب ، وسوف لا تتحمل العذاب ، رغم إن الكفار هم الذين يحكمون !

ـ ليس لدي أي شيء أخسره . . وهذا الوطن لا يخصني !

ـ جلدك ، دمك ، روحك ، كلها تخصنا !

ـ هذه كلها تعود بملكيتها إلى المزابل ، أما روحي فقد أعطيتها لرجل لا تؤمن به !

أخذه إسحاق وقال بحنان :

ـ أعقل يا حبيبي . . أنت لا تعرف هؤلاء !

ـ ومن يكونون ؟! أنظر إلى هذه القوة العليا التي تحكم السماء والأرض وتصنع كل شيء حولك !

ذهبا وتركاه لانتصاره الصغير .

مضى في الردهات يساعد المحتاجين ، حتى أنهار تعباً عند غرفة معتمة ، سمع أصواتاً مثيرة وغريبة . ثمة امرأة جميلة هنا أسمها العنود ، من أسرة تضع النسوة في لباس أسود كامل . لكن العيون خلف البراقع مذهلة . الحمحمة تتواصل والمتأوهان يصلان الذروة في رفقة سعيدة .

عندما فتح الباب بعد لحظة رأى نصيف البستاني ، معلمه ، وهو يخرج معدلاً ملابسه وممتلئاً بالسعادة !

٢١

كانا وحدهما ، ناضجين للحب أو للفراق . منهيين مهمة دموية أخرى ، ومغسولين بالعرق والنبل . تنضحُ منهما المياهُ والسوائلُ المطهِّرة التي أعادت النبض لجسد عاشقة ريفية محروقة .

الشمسُ ماضية في حربها الضروس ضد الأرض ، الحرارة تطلق الصراخ والدماء ، وتقلي البيض على الحصى .

كانا تحت نخلات كثيفة الأغصان ، وقربهما أمتد البحرُ وتنفست زرقته يوداً وإثارة ، وكان ثمة صغار قرويون يراقبوهما مستغربين ومستمتعين .

الحاج أنعزل عند السيارة ذات المحرك الملتهب ، المتدفق بخاراً .

كانت قيلولة رمضانية رهيبة .

قالت :

ــ أنت لا تعرف كيف تعثرت بهذه النقطة من حياتي . طرقٌ طويلة مريرة لشابة . . اختارت الرهبنة وعلاج المرضى في المناطق النائية . . وتخلت عن الاحتفالات والبهجة والمدن العامرة . . الاختيار صعب ومؤلم . .

توقفت . وبدت ظلالٌ كثيفة من الحزن وشراراتٌ من السمو . وأنصت مرهفاً للكلام الذي توقف ولإمتداداته المقطوعة . .هناك إلتماعات وإنقطاعات وأسرار مثل الألغام . ودائماً ثمة صمت عميق . وتبدو الحكاية عقلانية دائماً ، حيث الابنة الفقيرة المكافحة التي قدمت التضحية لأسرتها الصابرة المساندة وراء المحيط ، ولكن التوقف وتكرار القصة يشيران إلى أشياء مقلقة . وهما ما فكر فيهما دائماً . لماذا ؟ ما هي الفجوات في هذه السيرة ؟ لماذا تتألم وترتعش حين تستعيدها رغم عظمتها؟!

إن هذه الانقطاعات هي التي تجعله لا يمتلكها ، أو لا يفهمها ، رغم حبه الجارف نحوها . وهذا الارتباك والتقطع والتحول من الشوق إلى الصدود ، ومن المودة الحميمة إلى البرودة الصقيعية ، ومن الأنس والضحك إلى العصبية والحدة ، تجعله يرتبك ويبقى مع جسده الُمقلق ، المتوقف عن الفعل ، رغم جولاته النزقة في أزقة الحي القبلي ، حيث بائعات الهوى على الأبواب !

وانتبه للبحر ، ولصوتها المندغم بوشوشة أمواجه .

ـ . . كادت المرأة أن تموت بسبب وضع الطفل المقلوب داخل رحمها . . لم تبقْ فيها قطرة دم . . كانت الحياة تشكل الموت . . وفي جو العرق والدم والإضاءة الشحيحة أمسكتني وهي في فزع هائل وصاحت : اخرجي طفلي . . أخرجيه حتى لو قتلتني ! كانت هيكلاً أصفر . . وحالما انتزعتُ الجنين الصارخ من بطنها تألقتْ وابتسمتْ بفرح لم أره أبداً !

فكر : إنها ليست ممرضة غربية فحسب ، بل امرأة . . امرأة لم تنقطع عن مسارات الخصوبة والهوى ، تجري وراء جلود النساء المحترقة في الشرق . تنتزع الحياة والحليب من أثدائهن وتقدمها لمضغ اللحم الصارخة ، وكأنها تلد ،

وتصنع الأمومة وتتغذى بالطفولة المستمرة .

ولعلها الآن تقترب من صناعة الأطفال بذاتها . ترتعش بالخصوبة وتحس بامتلاء أثدائها بالينابيع الساخنة . لكن انكساراتها ممكنة في كل لحظة ، وعودتها إلى كهف التضحية وطحن الذات المؤلم مقلقة .

تقول :

ـ أنت لا تزال غامضاً لي . بل كل حياة هؤلاء غريبة . . أحس باني لا أستطيع أن أمتد في هذه التربة ذات البراقع المسيطرة ، والتمائم . كأنني أعود وثنية . رأيت طقوس الزار . .إنها مخيفة !

ودهش لانحراف الموضوع فجأة . وتذكر توقفها عند أكواخهم ، وذهابها معه إلى أحد بيوت السعف ، رؤيتها وانبهارها بحلقة الرجال والنساء المتداخلة الدائرة في أجواء البخور ودماء الطيور!

لمس يدها فحدث تماسٌ ضوئي ساخن . تطلعتْ فيه بشكل غريب ، ونهضت فجأة ، وسارت في أفق بيوت القرية البعيد ، فبدت كطائر مهاجر أضناه الترحال ، ولا يزال فتياً جميلاً يرتعش لرحلات قادمة طويلة . .

أحس بالقهر والألم لخواء يديه ، ولتاريخه الضحل المعدم ، وكأنه أداة للتجارب الدينية ، وليس للمحبة والعشرة . هل يستطيع أن يدفع ثمن الحب تضحية ومعرفة ؟ هو ليس سوى فأر تجربة ما في مسارها . أما أن يكون بؤرة في هذا العالم المنير ، فهذا محال ، وليس له سوى صراخ الحلم . .!

صاحت على السائق :

ـ ألم تتعبنا من هذه السيارة ، لقد احترقنا في الشمس !

كانت هذه أول مرة يسمعان صراخها . وكأنها أحست بعصبيتها الزائدة فقالت :

ـ آسفة . . يا حاج !

ألقتهما السيارة في ساحة المستشفى ، وكان غروبُ رمضان خالياً من البشر ، وكان المرضى والزوار متحلقين حول السفر الكبيرة ينتظرون مدفع الإفطار ، وروائح الطبخ الشهي تثير البطون . .

اندفعت ميري وحدها في الممر ، متجهة إلى المبنى الخاص ، حيث غرفتها ، وبدت كأنها تجري مذعورة !

٢٢

قالت :

ـ كنت أهرب بعيداً . . عن ملامستك . . مثلما خفت الرجال دائماً . . وشعرتُ بالوحشة والحاجة إلى الحب . .

كانت المكتبة خالية ، وكان يتتبع الفن الأوربي الصاعد من الصور الكنائسية إلى عرض الحياة . كان الرهبان الجوعى ، والمسامير المتوغلة في أجسادهم ، وعيونهم الواسعة تتطلع إلى السماء ، وكانت مريم العذراء وأبنها وحولهما هالاتٌ من النور ، وحفيفُ أجنحة الملائكة .

بدت أمامه مشعشعة ، مغزولة بحزن شفاف . ورغم نداءات الجسد الصاخبة التي لم تلبِّ أحس بالسعادة وسار فرحاً إلى حيه ، وقبل جدته وأعطى عائشة المبروكة مالاً ، وأندغم بمولد رمضاني بهيج تناثرت فيه الأضواء والألوان والحلوى ، وجرى مع الأولاد الذين كانوا يلعبون بالظلال والنور . لكن الفراش الفارغ والحنين إليها ، جعلاه يسأل الصمت : لماذا ، لماذا ؟

ذهل لأن امرأة قادمة من عالم الحرية والنور معقدة إلى هذا الحد ، ومسجونة في شبكة لامرئية . . لكنه لم يكرهها ، وأنتظرها . .

قالت :

ـ يجب أن تبتعد عني ، أرجوك ! لا تثرني . .

تحدثت بلهجة حادة ، ودهش لأنها تستفزه .

ـ قولي ، تكلمي . . أنت امرأة رائعة ، تقتلين نفسك من أجل الآخرين ، ولا تفكرين بنفسك . .!

كانت أصابعها تدق الطاولة وتهز الكتب ، وبدت كأنها تبحث عن أشلائها وهواجسها .

ـ لم أعد أصدق هذه الكلمات الدائمة عن العائلة المتماسكة . . قولي ، ماذا بك ، ماذا أصابك ؟

نهضت بحدة وقالت بغضب :

ـ كيف تجرؤ ؟ كيف لا ترى ماذا كنت . .!

أمسكت أصابعه بقوة . لم يعد يعرف هذه المرأة . كأنها أزاحت الستار بغتة عن تمثال مخيف . المرأة التي غذته بحليب الحنان فطمته على علقم مر .

هل هو مستمر في تناول البقايا ، الروحية الآن ، من مزبلة جديدة ؟!

ـ ماذا حدث ؟ هل أخطأت إلى هذه الدرجة؟

ـ لن أسمح لك بدس أصابعك في روحي . .

نهضت بغضب ، وأزاحت الكرسي بصرير حاد ، وكان وجهها مشتعلاً بالنار .

وكان يترنح متسائلاً :

ـ أنا . . أدس . . أصابعي . .!

خرجت وتركته في المكتبة الفارغة من الصوت والصدى .وأضاء كل شيء فجأة!

نهض بسرعة وتبعها . سار وراءها في الممرات الخلفية للمستشفى المؤدية إلى غرفتها . لم تكتشف سيره الحثيث خلفها . كان جسدها يهتز ، وذيل شعرها يتراقص متمرداً .

فكر : للراهبة المذعورة من الجسد !

فكرتْ : لقد أهنته . . لماذا أدفعه بعيداً ؟

كانت الغرفة الراكدة الجميلة تنتظرها بوله . فوجئت بدخوله بعدها . لم تغضب . أمسكها ، وقبلها ، راحت الملابس الملونة تتناثر في أجواء الغرفة ، والدمدمة الساخنة اللاهثة تهز الأشياء ، وكانت تغمغم :

ـ أرجوك . . يا أبي !

كانت تبعده وتضمه ، يلمس الجسد الحليبي المتألق اللين الممتلئ بلا ترهل ، وكأنه يغتسل لأول مرة ، يدخل نبعاً ، وكانت أصوات غريبة تصطك بسمعها ، ووجه أبيها يضمها فتتمرد بين يديه القويتين ، وتصرخ بألم ضار مروع ، وكتل وجهه الممتلئة المتشحمة ، ورائحة سكره ، تلهب جلدها الزهري الرقيق ، تحس بلوعة مرة عميقة ، لكن هذا ليس أباها ، بل فتاها الرقيق ، أول أبن لها ، إنه يقبلها وكأنه يخاف أن يخدشها بشاربه ، ويضع شفتيه مثل مؤمن أرهقه السفر والنور وانحنى يقبل الأرض المباركة ، إنه يغرق في عينيها كما لو كان يقرأ العهد الجديد ، ويضع فمه حيث النبع المليء بالحنو والكلام ، ويدخل المدينة المضيئة ، ذات الأقمار والأعشاب والأجراس ، وكان مذهولاً من تناغم الألوان والمياه ، وجمال الجسد المنسوج بالضؤ والعطر ، ورأى

في أقصى الحديقة امرأة ذات عباءة وبرقع ، وراحت تزغرد . إن وجهها يتشكل أمامه واضحاً نقياً .

٢٣

كان نهاراً رمضانياً قائظاً ومريراً . المراوحُ تهيج العرق الرطِب . النوافذ المفتوحة تجلبُ بكائيات المواكب الحسينية التي تعبر الشارع القريب . حشود من المارة متوقفة تتفرج ، وطوابير تركب الخيول وتحمل الأعلام وتدق صدورها وتنضح بالعرق والدم ، وتتوغل في عروق المدينة .

يحيى لا يكاد يلامس ميري المندفعة ، لكن نظراتهما تتبادل حناناً وألفة . توقفت عنده وتعانقت أصابعهما في رفع جريح .

سمعوا فجأة ضجة عارمة من الشارع . تدافعوا جميعاً نحو الشرفات وحدقوا في الطرق المذعورة .

كان هناك أناسٌ يتراكضون في كل اتجاه . آخرون يضاربون بالأيدي والسلاسل . الخيول تصهل وتقف على قوائمها الخفية ثم تطعن الناس بسنابكها . خيولٌ أخرى أطاحت بهوادجها وقماشها الملون وبالصبية الصغار الذين كانوا على ظهورها ، وراحت تقتحم الحشود .

المشاهدون الذين كانوا يحتمون بظلال بيوت سعف النخيل ، تساقطوا

أسفلها ، وراح آخرون يتراكضون فوقهم .

صرخات وصيحات وضربٌ وتدفقٌ مذعور في كل اتجاه ، وهاربون لجأوا إلى المستشفى ، وضحايا نقلوا بأشلائهم ودمائهم ، ولم يعد يحيى و لا ميري ولا أحد في المستشفى واقفاً .

الذين تساقطوا تحت حوائط بيوت سعف النخيل ، ومرت عليهم كتلٌ مذعورة من الأقدام والأحذية ، أنتبه إليهم أناس ورفعوا الجريد المتراص فوقهم ، وأحضروهم وهم شبه مختنقين .

رجالٌ أشداء تصدوا للخيول وأوقفوها . لكن السيل لم يزل يتدفق ، والنازفون ممتلئون بالدماء ، ويغطونه بغترهم وعباءاتهن ، وردهات المستشفى تمتلئ ، والدكتور تومسون يطلب إغلاق الأبواب ، لكن الأسوار المنخفضة لم تستطع أن توقف الزحف .

وسمع يحيى شظايا من الحكايات الدامية . بعضهم يصور خيولاً جامح اندفعت في وسط المتفرجين . آخرون يتكلمون عن شجار بين المعزين والمتفرجين . .

المدينة في حالة ذعر واضطراب مستمر . حشود من النعال والملاءات والأحذية متناثرة في الشوارع والطرق . أبواب المتاجر والبيوت مغلقة . الدروب خالية إلا من رجال الشرطة ، وملثمين يهاجمون آخرين ، ومارة .

وهو لم يعد يفكر سوى بجدته ، كيف ستعبر كل هذه الطرق الملغومة ، التي كانت هادئة إلى درجة الموت ، والتي غدت أنقاضا وحرائق ومعاركاً ؟

حاولت ميري منعه لكنه أندفع إلى الشوارع الصعبة . ركض وراءه فريقٌ من الرجال ، وألقت عليه نسوة قمامة من الأبواب والنوافذ ، ووجد الطرق المؤدية إلى المقابر مليئة بالجنازات والغاضبين ، ولم يكن بإمكان عجوز

مجنونة أن تخرج بصرة من الحشائش الآن .

ملابسهُ الطبية البيضاء لافتة خطرة أمام حشود بملابس سوداء . ولكنه صمّم أن يتوغل بينها ، وهي تولولُ وتهلل ، وتدفق عرقٌ بارد على جسمه ، وشم روائح العرق الحادة والدماء المتجمدة ، ورأى الأجساد المكشوفة المخططة بجنازير الحديد والأنصال الصغيرة ، وحدقت فيه العيون المتسعة الممتلئة بالدموع ، ولم تكن لديه حقيبة الأدوية ، بل مشاعر الحب لأجساد مترعة بالألم ، وكانت بقع الدم في ثيابه شاهدة على مشاركاته المبهمة .

انفتحت الحشود قليلاً لمروره ، السكاكين كانت قريبة من وجهه ، ووراء ظهره ، وبدا حوشُ المقبرة المغبر ينمو ببطء في المساحة السوداء الكثيفة ، وكأنه نورٌ في آخر الممر . .

لو أن أحداً صرخ بلفظة طالما سمعها لتمزق هنا وما دُفن . هل يقذفها أحدهم الآن ليوضع نصلٌ على عنقه ؟ الحياة الواعدة ستنتهي ، وذلك الجسد الذي أحبه سيعود لفجيعته . .

الجمعُ عاد إلى حزنه الصاخب وسلمه إلى فراغ المقبرة الموحش الممتع . ووجد جدته عند أحد القبور جالسة بجمود وكأن الطوفان لم يصلها .لعلها تهذي بترنيمة ممزقة ما . لعل هذا القبر قريب منها .

قعد عندها فابتسمت كطفلة !

٢٤

لا يعرف لماذا تغير عليه العالم فجأة . ذلك الوجود الهادئ الناعم الغافي أنقض وتهشم وأشتعل .

لم يكن احتفال تعميده صاخباً . بل إن الكنيسة بدت فارغة ، وكأن لا أحد يعير صخبه الروحي التفاتاً . ليس ثمة بروقٌ في السماء ، وأمطار صاخبة ولا حشدٌ فزعٌ و أسلاك مشتعلة . كان هناك فحسب صوت لبائع نحاس أقتحم صوت القداس . وكان يجأر بطريقة جعلت عرقه يتصبب بارداً . وحتى وجه ميري بدا عادياً ، وكأن كل خوفها عليه تلاشى ، ولم تعد تحبه . أما الدكتور تومسون فهو ماضٍ في صفقته مشترياً روحه دون أن يدفع قلقاً أو حباً .

ووجد الشوارع هي ذاتها ، بل لعلها ازدادت جهامة ، والمقبرة موحشة ممتلئة بالشرائط السود والخضر والفراشات المحترقة ، والأفق لا يقف و لا ينفتح . .

الطرق صارت معادية . أنفصم عن هؤلاء السمر الذين يملأون الشوارع ، وتروح أدعيتهم العفوية تثقب سمعه ، والمآذن تدهشه ، وجحافلهم تقلقه . .

لم يُفز إلا بقطعة من الحديد معلقة في رقبته ، وأصبح محرجاً وهي تهتز وتكاد تبرز هويته ، خارجة إلى دهشة العيون !

حتى الكوخ لم يعد مسالماً ، وأهل الحي نأوا عنه ، ولم يدقْ أحدٌ بابه ، وجاء صوتُ آذان المغرب ، مع وحشة المساء والظلمة المترجرجة بالنور ، كصرخة مدوية في أعماقه .

سمع نحنحة علي المدخن وصرخاته على ابنه ونهيق حمارهما وصوت العربة المترجرج ،لكنهما لم يتوقفا كعادتهما ، فيقرعان الباب ، ويتحدثان ، عارضين رسالة ليكتبها أو ليقرأها .

وصاح : لعل جدتي ذاتها تقاطعني الآن . . ألا ترى كيف تبصرني ؟ إنها لم تنظر ألي هكذا أبداً !

غيّر ملابسه ، ولبس ثوباً ووضع كوفيته وعقاله على رأسه ، فتقلقلت المرآة أمامه .

خرج إلى العتمة ، وإلى ثمار النور القليلة المتناثرة . أتجه نحو ثلة من الشباب ، فوجدها تذوب في الدروب ، حاول أن يستبقي أحداً فلم يجد سوى ظله .

أقترب من دكان مرزوق وثلة الرجال الكبار ذوي الحكايا المعتقة وألعاب الورق . سلم وجلس وهم صامتون . توقفوا عن الكلام وحدق فيه بعضهم ، ومضغ بعضهم ألفاظاً .

سأل مرزوق :

ـ بكم بعت دينك يا يحيى ؟

تطلع إليهم بحزن وألم وصمت . صاح الحاج مطر :

ـ الله يخزيك . . يا ولد !

إنه متزوج من اثـنتين وهما دائمتا الشجار في بيت السعف الصغير .

قال آخر :

ـ نحن الذين ربيناك . . .فأخزيتنا !

قال بألم وأسى :

ـ لم يربني أحدٌ منكم . أولئك الناس هم الذين أعطوني المعرفة . . تعالوا ابحثوا في بيتي عن ذهب أو فضة! أنتم لا تفتشون القلوب أبداً !

ـ إذا كانوا أعطوك العلم فخذه . . أما الضمير فلا يباع !

أنفجر حمالٌ أسود :

ـ هيا أخرج من هنا ، أخرجْ !

كانت الليالي والنهارات مليئة بنثار الحديد الملتهب . الأقوالُ والأفعال والوجوه واللافتات واللحى والجدران والأبواب راحت تناوشه . الأيدي تطلبُ قسماً يعجزه . التمتمات لم تعد له . الحنجرة المتشققة من العطش لا تستطيع أن تفتح صنبوراً في مسجد .

من يستطيع أن يفهمه . القمر يتعكز على غيمة منكسرة ، والروح ضائعة . الإبلُ الأجرب لا يلمسه أحدٌ .

حتى ميري تغيرت فجأة .

ذلك الوله والشوق ، والحنان الأمومي والجسد المغسول بالطمي والريحان ، اختفي .

تسيرُ في المستشفى مثل الدمية الآلية . صارمة ، جامدة ، صامتة ، تتطلع فيه كأنه أي عابر سبيل . التحية التي تقذفها نحوه لا يختلف جرسُها عن تحياتها للمرضى والنواطير .

ولم يستطعْ طوال أيام أن يختلي بها ، رغم ترصده الدائم . وتوقفت

الزيارات إلى أدغال الأرياف والأزقة .

ورآها تحيط أحد العمال المرضى بحنان مبالغ فيه ، وباهتمام غريب ، ذكره بلفتاتها الحانية نحوه ، ولعله الآن هدف للحب الزائف الجديد !

وذات مساء تمكن من الاختلاء بها . وكانت منهكة ، طالعة من غسيل دموي مرير . هتف بها :

ـ لماذا تركتني؟

لم تكن تشاهد عمق عينيه . راحت تشق طريقها بصعوبة إلى غرفتها .

٢٥

كان على سريرها . مغسولاً بالنور ، ومرشوشاً بالظلال والهمس .

ـ هل تعرف أنك الشاب الوحيد الذي أحببته في حياتي؟ انني أكره مذاق الرجال . وشيئاً فشيئاً تعرفت الى رائحتك وهمت بها .

كنتُ الطفلة المستمتعة اللاهية في الحقول وبالعصافير . أجري وراء ملاكي ، ذلك الأب الشاهق العملاق . . الذي يتحد بالأسيجة والأشجار والمنازل والسحب . الذي يحملني فوق رأسه ، وأنا أكركر بالضحك وأتلمس بيض الأعشاش وأرقب اهتزازات السمك في سنارته .

لم يكن وجودا ذاك بل جنة . وحين كبرت ظل يحملني الى الغابة ، والنهر . ولكن الوجود شُرِخَ فجأة . كنتُ أخاف من أصابعه الضخمة وهي تفتح أزرة قميصي ، وتداعب ثديي . ظهرت الأبنية شوهاء ، مليئة بالدخان ، والأزقة سُدت بالمتسكعين واللصوص . وفي الليل كان يأتيني وأنا مذعورة ، مختبئة في ألحفتي ، ممتلئة بالعرق . كان دائمايحضنني ، ويقرأ لي :

ـ سأقص عليك يا ميري قصة الحوت موبي ديك . سأقرأ لك . .

آه أيها الحوت المتوحش الملتهم لسيقان البحارة وأقفاص الأسماك!
ما كان أكثر ودك ورفقك!
كنت أهتف به :
ـ أبعد هذه القصص عني!
كان يلمع وداً ولطفاً أمام أمي واخواتي . وكنت لا أكاد أن أتطلع اليه . أهتز وأقشعر عندما يلامس شعري . لم أكن قادرة على فتح فمي . وهذا هو الذي جعله يلقي بأعباء المنزل علي ، مستغلاً مرض أمي ، وجثومها الدائم في السرير . وقتذاك يتسلل الى المطبخ ، ليحتضنني . كنت أقفز من ملامسته المفاجئة المرعبة!
كل الكتب التي يحضرها ، كل الرجال والعائلات الذين يدخلهم الى منزلنا ، كل الضحكات والكلمات ، والورود والاسطوانات ، كنت أكرهها . .
ذات مساء كنت أراهم يتجمعون حول المدفأة ، ويشربون ويتحدثون .
سمعت رجلاً يقول :
ـ لم يعد ثمة آلهة . . لقد سأم الإنسان من صناعة هذه الأشياء . .
ورأيت وجه أبي ، في تلك اللحظة ، هادئاً رصيناً .
وكان هناك امرأتان رمقتا الجمع بدهشة ومرارة .
أضاف رجل آخر :
ـ أصبح كل شيء مملاً في هذا الوجود . انني أحسد هؤلاء المؤمنين الذين مازالوايحتفظون بطفولتهم البشرية . .!
فقال أبي بصوت ممتلىء بادعاء الحكمة :
ـ دعوا الناس في معتقداتهم ، وكفوا عن هذا الكلام المزعج . .
رد الرجل الأول :

ـ أنظروا الى اتساع الكون المدهش ، المجرات التي لا تحصى ، ولا يزال هناك أناس يتشبثون بالأحجار!

خرجت من المنزل ، وسرت على غير هدى . مازالت أنفاس أبي في صدري . وكل تلك الكلمات التي راحت تدب على جلدي مثل الحشرات الدبقة . سقطتُ . ونزفتُ ، وسرتُ وجاءت ريح باردة ، هزت أعطافي وأطاحت بشعري ورأيت برقاً عظيماً فوق المدينة والأفق ، تشرشرُ أجزاؤه بالدم والمياه . .

في الصباح كان أمامي إعلان الجريدة الذي يطلب ممرضات راهبات . قدمت نفسي فورا . وحين أذعت الخبر في مجلس البيت الممتلىء ارتفعت الرؤوس من أقفاصها الصدرية وكأنها تحلق وحدها .

كان شيئاً مذهلاً ومرعباً أن تصير فتاة في ذلك المنزل ، وبين ذاك الحشد راهبة ، أن تُلقي ليالي الصخب وعقود الذهب والفساتين والرحلات الى الأنهار والمحيطات والجزر النائية ، وتحشر نفسها في ثياب خشنة وتتوغل في قرى الملاريا والطاعون .

كان أبي يهرول من جدار إلى جدار ، وأمي تضرب رأسها بيدها ، وأخواتي يتساقطن حول ركبتي .

بالدم والعرق وبكاء النسوة كنت أغسل جلدي ، وعبر مستنقعات البعوض أطهر نفسي .

توقف يحيى عن لمس أصابعها . كانت هذه أطول وأغنى فترة تتحدث فيها . ازداد حبها في قلبه .

ـ حبك جاء نظيفاً جميلاً . أحسست بأمومتي لك .كأنك الباحث عن عائلة فيّ . كنت أسمع استغاثاتك الصارخة ، وأرى أنياب الكلاب في

جلدك ، ورضات الصخور . كنا نلتقي عبر المحيطات والبراري واللغات المليئة بالضواري .

إلتصقا ، وتأمل عينيها : الهدوء العميق للحب ، الرضا بقطعة خشب طافية فوق المياه ، الضوء من جسد أبيض متناسق وذي رائحة مخدرة . رهبنة ولذة ونشوة .

٢٦

ما كاد يحيى يصل الى باب كوخه حتى برز شبح من الظلام : غترته سَدّتْ نصف وجهه ، وألتمعت عيناه بالشرر . لكن اللثام سقط وانفجرت ضحكة إسحاق .

ثمة نجوم رائعة في السماء . ارتجف قلبه . لكنه كان في غمرة سعادة عميقة . لايزال مذاق ميري في روحه . وازداد فرحاً برؤية رفيقه القديم .

لم يصافحه ، وكانت يداه في جيبيه ، ومشى متجنباً دخول البيت . وحدق في البقعة التي كان يسكنها بلا أي حنين .

سار معه دون أن يدري لماذا أو إلى أين . المشاعر القديمة الجميلة تستيقظ ، ودبيب الرفقة وصوت العربة والنداءات على الأشياء والحمل وأكل الخبز الساخن المدهون بعرق من الزيت والنوم في الظلال المشوية للظهائر ، كلها تستيقظ صوراً أليفة مغمورة بمشاعر الاخوة .

أقترب منه ، وكان الليل مُفعماً بالظلمات ، والطرقات صامتة ومقفرة .

ـ إذن أصبحت منهم . .!

تكسر الصمت فجأة بضحكات صاخبة ، بدت نزقة وعصبية . ولم تزل يداه مخبأتين ، ولا يكاد أن يتطلع فيه .

ـ صديقي العزيز تركني الى الأبد ، الصبي الأخرس يريد أن يكون موظفاً كبيراً ، أو شرطياً قاسياً!

كانت مدة غير طويلة التي انقطع فيها عنه ، ولكن التبدل كان كبيراً وغريباً . هذه الهيئة المغرورة ، والنظرات التي تنضح غطرسة وصلافة لم تكن بكل هذا البروز الكاسح .

أثاره ذلك أكثر من الاتهامات العجيبة . أحس ان هذه الهيئة القاسية وراءها شيء مخيف .

وفي عمق الصمت الذي خيم أحس بسؤ التُهم ، فقال :

ـ إنني لا أفكر في الأشياء التي تتخيلها أبدا!

ـ اسمع! أنا لا تنطلي عليّ كل هذه الألاعيب . .

ـ انني لا علاقة لي بكل هذا .

ـ إذن ابتعد عن هؤلاء الناس تماماً!

بلع يحيى ألفاظه بشفقة ، وخاف أن يقول (دعنا من هذه السيرة) ، محاولا عدم اغضابه .

وغيّر الآخر لهجته فجأة :

ـ تعال أريك المنزل الذي استأجرته . . انه هنا في هذا الزقاق . .

. . انظر ماذا تعطي رفقتنا الجديدة؟

أحب هذا الصوت القديم ، الرفيق المرح ، وود لو يمتلىء الزمان به . شاهد منزلاً حجرياً .

ـ لو كان الوقت غير متأخر لاستضفتك!

ـ هذه هي الدعوة التي أشتاق اليها . .

السماء ليست بخيلة اليوم بالهدايا .

سارا معا وعبرا الأزقة النائمة إلا من صياح الرضع ومعارك القطط والكلاب . ووجد يحيى انهما يقتربان من البستان المهجور ، الذي طالما تسكع فيه الصبية ومارسوا عاداتهم السرية والشقية . إسحاق صَمَتَ واختفى تنفسه .

بغتة ، وعبر حركة من إثارة الأفلام ، وقف أمامه وقال :

ـ لدي مهمة يجب أن أنفذها . .!

برزت السكين طويلة من جيبه . كانت يده ملتحمة بها طوال الطريق .

ـ لديك فرصة الآن . . لتتوب وتتطهر!

شل النصلُ لغته وتفكيره . الهدوء وأصوات الجداجد الأخيرة في الدغل اليابس ، والعتمة الكثيرة ، والنور الخفيف البعيد ، والنصل القريب ، ودمه الذي قد يُراق فجأة ، والحياة التي تختطف في غمضة عين ، مثلما جاءت في غفلة مروعة ، والفرصة التي تُعطى له لكي يكون طاهراً بيد ملوثة . .

ـ هل تقدر على ذلك حقاً؟!

ـ أنت أغلف . . وهذه السكين ستحررك من قذارتك!

ضحك بصوت مجلجل على الرغم من كل كهف الظلام والدم .

ـ من القذر حقاً؟

ـ سأغرز هذه السكين في قلبك . .

ـ لست خائفاً!

ـ نعم أنا كنت أحمل بعض القذارة ، حتى إن شيئاً كبيراً من حكايتي كان كذباً . والآن تغيرتُ . أنت لا تعرف على أي قوة عظيمة أقفُ . إننا

سنطهرُ هذه الأرض ، فـيـا صـديقي القـديم دعني أنتـشلك مـرة أخـرى من الزبالة!

اندفعت السكين الى قلبه لكنه تفاداها فأصابت خصره . تعثر ثم سقط . إسحاق لم يلتفت ومضى مسرعاً .

٢٧

كـانت مـيـري تمشي ببطء نحـو غـرفـة المدير . تركت يحيى في حـالة مستقرة . نزف كثيراً . ظل طوال الليل على التراب الذي تحول إلى سجادة دماء . لولا الحمال الذي كان في عشة بالبستان المهجور لكان قد رحل .

حتى علاقة الأمل الأخير في حياتها كادت تُسلب منها . لو مات لكان صدرها مقبرة الآن .

دخلت بود على السيد تومسون الذي لم يكن هادئا كعادته . كان صارماً ، حتى انه بادرها بالقول قبل أن تصل إلى الكرسي :

ـ أنت يا ميري راهبة قبل أن تكوني ممرضة . لم نحضرك هنا لتقيمي علاقات غرامية فاضحة وشائنة! منذ أن جيء بهذا الشاب وأنت مُلتصقة به . . يمكن أن أبرر علاقتك به قبل أن يتحول ، ولكن ما فائدة ذلك الآن؟!

لم تصدق ان كل هذه الأقوال تصدر من هذا الأب الصديق . أن يبدو فجأة كمتلصص على خفاياها السرية وممتلكات روحها الخاصة . كما لو أن جسدها صار أداة للخداع ولعبة للتضليل . لم تصدق . وانهارت على المقعد

غير قادرة على النطق .

إنه لم يهتم بنزيف يحيى ولم يأت لرؤيته . لم يرْ قربها الحميم منه ورعبها من رحيله . لم يتكلم عنه عندما كانت تأخذه في رحلات الرعب الليلية الى القرى والمصروعين والمقطعين . لم يرحما شبابه الغض ، وجربا فيه مفرقعات التبشير .

ـ لا أصدق أبداً انك تقول مثل هذه الكلمات! كنت ابنتك ، طفلتك التي تركض وراءك أينما ذهبت ، كنا نغوص معاً في حفر الألم والدم ، وسط الصحاري الغريبة القائظة ونصطدم بكتل الرمل والكراهية والشكوك ، ونجر نفس البشر الى فخاخنا . أدرك الآن جيداً ان القضية لم تكن لك أبداً أخلاقية . .!

كانت مياه كثيفة ساخنة في وجهها لكن لم تسقط ولا حبة ماء واحدة .

ـ ألم توقعي على عقد ينص على أن تكرسي نفسك لخدمة الرب ، وأن تنقطعي عن معاشرة الرجال؟ ولكن انظري . . هناك من كان يرى هذا الشاب متوجهاً الى غرفتك؟ لماذا فعلت ذلك يا ابنتي؟ أهذه هي الصورة المشرقة للأخت؟

الحشرات تدب الآن بين نهديها وتشرب ماءها .

ـ ولماذا لم تقل ذلك سوى الآن . . لقد كنت أعاشره منذ زمن!

ـ أرأيت . . انك تعترفين . .!

ـ كيف سمحت لنفسك بأن تتجسس وتكتم المعلومات ثم تستغلها . .؟!

ـ انني أسامحك رغم كل ذلك . ولكن أنت كيف تبررين لنفسك هذا؟ لقد تمرغت في الشهوات!

كان يتطلع اليها بغضب ، ووجهه المتهدل الهادىء يرتجف . وعيناه

مصوبتان الى وجهها . كان يرتعش . أهو أيضاً كان يكابد فراشاً بارداً؟ كانت تلمح إشارات يده الساخنة ، واختلاجاته وهو يحييها .

أليس إنساناً؟ ليس ثمة إنسان فوق جسده ، بل به ، لا يسمو إلا عبر تغذيته شهوة وحباً . ألم تكن هي مصروعة به ، فتعرق في العمل حتى تتحول الى خشبة ، لا تعي باللهيب الساري بين فخذيها؟

أما هذا الأب فهو يكدح منذ أربعين سنة هنا ، زَهَدَ وأعتكف بين أدواته ومرضاه وكتبه وكنيسته . . لماذا تستكثر عليه ببضع بقع من الضعف؟

إنها تغفر له ذلك ، بل حتى تكالبه على النقود كان لمصلحة المستشفى وتوسيع غرفه وأدواته وإنقاذ البشر .

وكل هذه السنين المضنية لم يمسك كتفها ولو مرة واحدة ، محتفظاً بنقائه وسط مستنقع الدم والعرق . ولكن أن يقتحم روحها ويطل في تضاريسها فهو أمر مرعب!

٢٨

كان يحيى بين النشوة والوحشة ، تتراءى صورة إسحاق غريبة مخيفة ، اليد التي تغرز السكين في العتمة والخواء . العيون التي تمتلىء بالكراهية .

ينفجر : لماذا تدفقُ الأيدي الدمَ؟ أين حواجز الروح والحب والرفقة؟ لماذا يتحول الأخ فجأة الى رصاصة ، وينتزع عابرٌ ما رأسك؟

كانت أسئلة المحقق تنهال عليه :

- من هو؟
- لم أعرفه .
- كيف كان شكله؟
- كان الظلام شديداً .
- ماذا كان يلبس؟
- لم أنتبه .
- هل امتدت يد وطعنتك من الفضاء؟!
- ....

- هل كان يتبعك؟
- جاءت الضربة من الخلف . . لم أتمكن من رؤية أحد . .
- الحمال سمع كلاماً وصراخاً . .؟!
- كان صراخي وهذياني . .

الرجل الذي جاء به الى المستشفى حمال يسكن في عشة بالبستان المهجور، ولم يبخل بزيارته .

تدفق أهل حيه عليه . رأى علي المدخن وابنه الذي كان مازال يسعل . وحملتْ اليه عائشة المبروكة صحوناً من أحلى طبخات الأرز والسمك . بل وحتى مرزوق وصحبة حكماء الدكان ولاعبي الورق ربتوا على يده وتمنوا له السلامة .

يدهش من هؤلاء الناس وبساطتهم وطيبتهم المُغلّفة بالقسوة الظاهرة والجفاء واللامبالاة . لم يكتفوا بزيارة واحدة ، واحاطوه بثرثراتهم اللطيفة ، وتعجب من حكايات الكلاب والعشش وفرق الرقص والطبول ، وعجّ الحيُ أمامه بالحياة والصخب والألوان . انهم أهله ، خلاياهُ الصلبةُ من قدورهم وأكياسهم .

ولم يكن هناك جليس دائم مثل الجدة ، التي لم تكن تعرف ماذا تفعل له ، تضع اللقيمات في فمه أم تضمه الى صدرها؟ انها تلتصق بسريره .

لماذا ربطه القدر بها ، أكان من الممكن ان يكون لولا هذا الجمع الانساني المتواري تحت جلده؟

أما ميري فلم تعد قطرة دم تسقط أو قطرة ماء تشرب إلا عبر حنانها .

ما أحلى وأعذب قراءاتها للقصص والأشعار ، هل كان من الضروري أن يُطعن ليعرف ويتذوق كل هذا الحب؟

برأ الجرح ، وأخذته سيارة المستشفى الى الحي ، كان الحاج سلمان يتمتم له بالسلامة ، لم يزل صلباً ، وكان وميض عينيه يقول : ألم أحذرك يا فتى؟!

استقبلته «الليوه» : طبول طويلة تصل الى بطن الرجل الضارب ، وطبول صغيرة معلقة على خصور رجال آخرين ، وتنكة من الحديد ترتعش بالخيزران المنهال عليها ، وأظلاف الماعزالمتجمعة في كتلة مترجرجة تهتز وتصدر أصوات قطيع بري راعش .

كان الراقصون يدورون في حلقة حوله ، والمساء الهابط ملىء بالنسيم الرقيق ، والجمر يصنع لحم خروف يطرطش دهنه النازل بانفجارات صغيرة ، والصبية متحلقون حول الأكل الذي لا ينضج أبدا . .

وجاء ممرضون من المستشفى ، ومرضى سابقون ، وهبطت النجوم من السماء وجلس القمر فوق عريش مرتعش بالضوء الأبيض ، ومدد ساقيه فوق الأفق .

هتف يحيى :

- يا إلهي الطيب ، ياإله الجميع ، أيها النور الانساني!

تداخلت الألوان البيضاء والسوداء والسمراء ، وتشابكت الأيدي والأصوات ، وحجلت الأرجل الحافية في دائرة طويلة مستمرة ومُثخنة بالَحفْر والجذل .

يتساءل :

- النور ما هو أصله ، والفرح ما جذره ، وما الذي جعل البشر أصدقاء أو أعداء ، وفصمَ الوحش عن جلده المدبوغ بالسكاكين ، وجعل الوردة ضارية تلتهم الأصابع؟ ومتى نصعد فوق هذه الأرض المُدببة بالمسامير والمذاهب ، والذهب القاتل؟ ولماذا تعطينا الموسيقى والرقص أجنحة لرحلات صغيرة في

هذا المدى؟

أغـفى على الفـراش ، وأغلق الكوخ ، ولا يزال تدفق الفـرح يزهو ألواناً وأصواتاً ، وامتدت اليه أحلام وأيد كثيرة ، وأخذته أجساد النوارس لوجوه سعيدة .

أحس بحرارة لاسعة وبدخان كثيف ، وكأن أحداً يضع مخدة مبلولة بالكاز على وجهه ، وحاول ان ينهض فلم يستطع ، وبدا شيء تحت ساقه يمتلىء بنار ، وصدره ينوء بمياه حامضة ساخنة .

سحب نفسه بقوة من شبكة اللهب ، مذعوراً ومذهولاً ، باحثاً عن بقعة واضحة لم يطمسها الدخان الأسود الغزير ، نقطة حبيبة طالما غذته بالعشب والماء ، كتلة غدت مطموسة بالنار والدخان والسعف ، ولكنها تمتلىء بأصوات غير معهودة ، غزيرة الحِدة والصراخ والألم ، متفجرة بلغة الآه المرعبة . . .

٢٩

جدته كتلة من الفحم والجمر والألم ، آهاتها تكهرب جسمه كله ، والمستشفى كائن عليل عاجز .

انها آخر خيط حي يشده الى طفولته ووحشيته .

البشرة الفحمية الغريبة المحزوزة بخطوط حمراء ، في الوجه الأسود ، ليس فيها سوى العينين المتسائلتين : لماذا؟

لم تعد اللغة مهمة ، أصابعها التي احتوت يده ، تنقل شفرات عميقة . إنها تتكلم :

- دعني أمضي ياحبيبي . لم تعد بحاجة اليّ . جمعت لك الأعشاب والثياب والعملات المعدنية الصغيرة والخبز . احتضنتك في كل ليالي البرد ، وكانت المدينة تغفو بعيدا عنك . استلمتك من البرية القاسية . نموْت في اعطافي . دعني الآن ارحل ، لم تعد بحاجة اليّ ، ترعاك امرأة أخرى طيبة ومحبة ، وأشعر اني أديت كل واجباتي ، واطمأننت عليك . لا تبكي هنا بقربي فتزيد عذاب رحيلي . أهدأ ودعني أموت وأنا أراك قوياً وسعيداً!

بدت مثل كتلة من الصخر المحروق ذي الاشعاع غزير الارسال .

- ليتني أراك وأنت في عرسك البهي ، ألمس أولادك وهم يتلاعبون حولي .

ان عينيها المضيئتين تتدفقان بالتعبير ، انفعالات غريبة وعميقة فيهما . كأن النار أنضجتها للكلام والحضور . وكأنها تريد أن تبوح له بأسرار لامعة ، ان تعطيه مناديل من الأم ، وغصناً من الأب ، تغفو ، وتتغلغل في أنين مروع ، تتمتم بأسم الله ، هذه الكلمة الوحيدة التي تسربت منها . .

يمضي النهار ، ويعطي الظلام دفقاً متزايداً للآلام ، الجسد يتقيح ، ويتقشر ، والفحم يشتعل ولا يضيء ، وهو يصلي لكي ترحل ، ويشكل حوضاً من أدوية وأدعية ، ويصطدم بصدر ميري ، ويشد على يديها ، ولا تستطيع خطوط الماء والكلام ان توقف مجرى الآه . .

تمتد القاعة أمامه بأسرتها المتعددة المتوازية وبنوافذها المفتوحة على السماء ، وبالأنين والضوء الشاحب ونداءات النواطير وقرقعة أحذيتهم ، وبالزمن الثقيل ، كفرن واسع ينشر عظامه ببطء وتلذذ ، ويود لو يصرخ ، أو يطعن أحداً ، يغلغل سكيناً في قلب عدوه ، ويهشم رأسه ، ويود لو يضرب بحذائه الأرض ، ولكن لا شيء يحدث ، والهدوء الناري يحرق خلاياه ، وكتلة الفحم والتجاعيد والأحافير الغزيرة لا تزال حية ، مليئة بالموت ، الذي لا يفيض تماما ويغرقها بالصمت والراحة . يمشي الى الكنيسة ، يسقط عند المنصة ، يتطلع الى الصليب ، ويصيح :

- هذه الأمنية . . الآثمة . . فحسب ، هذه وبعدها دع الذئاب تأكلني! هذه أيها الرب . .

يخرج ويصفعه الظلام والزمن ، ويصطدم بشيخ عجوز يبسمل فزعاً ،

ويندفع في الممرات نحو الجدة التي لابد ان تكون جثة رحلت بسلام الآن ، ولا شك ان نداءاته وصلت الى السماء ؛ ولكنه لا يجد خَلقاً كثيفاً عند السرير ، ويقترب بلهفة : ما تزال كتلة الفحم البشري تتأوه!

نقط الماء تتفجر وتشتعل اذا لامست جسدها . عيناها تصيح به . الحصان الجريح يُطلق عليه رصاص رحيم . سماء المدينة معتمة ولا مبالية . وحده قلبه الذي يدق .

عيناها تحدق به . كأنها تصرخ :

- هيا يا ابني ، هيا!

« إلتفتوا الى من سيقتل أمه! حدقوا في اليدين المرتعشتين اللتين ستخنقان الحياة النازفة!» .

يداه تمسك وجهه المبلل بالدموع . ويتطلع فيها وكأنها في بركة ، غائصة في اليم العميق . تأخذ ماعزها وأعشابها وأمطارها وصمتها الى السكون الأبدي .

شفتاها المتقرحتان تقبله وهو يكتم أنفاسها!

٣٠

الجسد الميت المقتول فوق النعش الأبيض ، يطير فوق اكتاف الحشد ، من أين طلع كل هؤلاء الناس ، ،ولماذا يصيحون؟ يحاول ان يمسك النعش لكنه يفر منه ، والاقدام الحافية او ذات النعال البلاستيكية السوداء الغليظة ، والثياب المغبرة و«الغتر» المتهدلة ، تزاحمه ، وتظهر المقبرة في الأفق واسعة ، بجدار منخفض متهدم ، وعشب كالح يقضم الأرض واللحم ، ومغسلة الأموات غرفة صغيرة حقيرة ، ينصب منها ماء أصفر معدني .

لم يجد نفسه إلا في صلاة ، يقف فيها كما يقفون ، ثم يمضي الى الخلاء الذي تلتهمه الوزغ والأعشاب الوحشية ، وتنبثق حفرة لتوضع بقايا الجدة فيها ، يهتف به أحدهم ، ويطلب منه النزول الى القبر المفتوح .

حدق فيه مستغرباً ، منتظراً الأوامر المدهشة الاخرى . أمره ان يقلب الجثة ويوجهها الى القبلة ، فنفذ وقعد .

قال الرجل : أيضا :

- هيا اخرج من القبر!

وما ان صعد مغبراً غارقاً ، حتى انهال التراب في الحفرة ، معطيا النبات الضاري فرصة القدوم والانتقام .

اندفع الناس اليه ، وراح بعضهم يصافحه قائلا :

- عظم الله أجرك!

وهو لا يعرف بماذا يرد ، وأمسك بعضهم يده بحرارة ، وراح يقبله ، فهدأ .

وحسب الناس سيتركونه ، لكنهم أحاطوا به ، وملأوا غرفته التي استأجرتها ميري له ، ودهش من دلال القهوة والشاي والفناجين والكؤوس التي أحضروها ، وانتشرت المصاحف عند الصدور ، وتدفقت الشفاة بالكلمات ، وظل باب المكان مفتوحاً للزوار الذين لم ينقطعوا ، والمندفعين نحوه والمصافحين بحرارة ، وانتشرت كلمات المواساة والذكريات والتعارف والحكايات ، وبدا حزنه قد خف في اليوم الثاني ، ووجد أبناء حيه يحضرون الأكل ، وتصطف الصواني المليئة بالأرز واللحم ، وهز جمع غفير المكان ، لكن الغرفة اتسعت له ، وتداخلت ارجله وسواعده وكلماته وكرات أرزه وقطع لحمه ، حتى جاء اليوم الرابع ووجد نفسه وحيداً ، والمكان مقفراً ، لكن الحزن الغامر رحل ، ولم تبق سوى اشباحه .

اشتاق الى أهل حيه ، ذهب الى أكواخهم ودكاكينهم ومجالسهم .

رفقة الجنازة والمأتم ذابت .

ذهب الى كوخه كأنه يريد ان يجده ، فلم ير سوى بقعة من الرماد ، وبقايا الأشياء العزيزة ، التي اشتراها بنقوده الأولى القليلة ، وكانت الأدوات التي رافقته وصارت امتدادا مفيدا لطيفا لذاته .

هذه هي أضلاع الطاولة التي قرأ عليها ، وهذا هو ظل المسند الذي جلس عليه اسحاق . هل هو الذي حرقه؟ هل يقوم بذلك حقا؟

كانت ظهيرة ساخنة ، والأرض السوداء والخلاء الواسع يشكلان بحيرة من الماء والبخار المشتعل .

تراقصت ظلال ولدين يجريان نحو عربة القمامة يبحثان عن الأكياس المليئة ببقايا الطعام .

ولدان كانا يتسكعان تحت اغفاءة النجوم ، ويقتسمان بصلة أخيرة ليناما دون ضجيج الاحشاء .

ولدان إلتصق رأساهما وتبادلا الحكايات والأحلام ، وسبحا عاريين في نبع ، ودهش الآخر من تكوينه ، ولكنه اندفع معه وتسلقا شجرة لوز وألتهما ثمارها حتى ملأ الصبغ الدامي جسميهما فضحكا بفرح عميق .

ولدان فتحا القواميس المدهشة للغرباء وانغمر الأول فيها ، واحتار الآخر وانسحب وحسد ، وانطلق الى أول الصرخات ولبسها .

كانت هناك لحظات من الغيرة الفظيعة التي تجلت في صديقه العدو ، وكان جبينه يتغضن ولسانه يصرخ .

ثم انتفخ بكلمات الكراهية والغضب الى ان وضع النصل في خصره ، يده امتدت اليه بقوة وثبات ، انتزعت شظية من لحمه ، وتركته على التراب يحتضر ، هدوء مرعب ، وذات رهيبة . .

جاءه في الحلم ولم يخبره . . كتم على خطوط عقله زمناً طويلاً مقيتاً دون أن يعطيه أية مفاتيح لقلبه .

٣١

غرفته التي تستند على أزقة السوق الضيقة يأتيها صخب الدكاكين في النهار . يحاول ان يرقد من نوبة العمل الليلي . لكن الصخب ينفجر . ثمة عاصفة من الأصوات ، وكتل من البشر تهز الدروب .

ينهض مستعجلاً . يضع ثوبه المكرمش على أجزاء من جسده ويهرول .

الصخب قوي وعنيف في الشارع الرئيسي للسوق ، حيث دكاكين القماش والألبسة والأحذية تمتد حتى تظهر دكاكين الذهب .

الحر والرطوبة والزبالة المتناثرة وروائح المأكولات الهندية الحارة ، والأرض الغبراء الصلبة ، ملامح المكان .

الأزقة التي تقترب فيها الدكاكين حتى تكاد البضائع ان تتصافح ، ويتبادل فيها الباعة العرب والفرس والهنود اللغة وكؤوس الشاي ، تقوده الى بؤرة التنور . الشارع الطويل المنحني قليلا في الشرق مركز الصخب .

جحافل من الناس امتزجت معاً ، وشكلت نهراً متدفقاً بأصوات .

لماذا يضطرب ويمتليء بالجيشان والصخب والحب ، وكأنه يعرف كل هؤلاء

الرجال القادمين من العشش، غسالي الثياب والبحارة والحمارين؟

ألم ير هذا الرجل في القرية البعيدة، حيث كانت المرأة تلد بعسر؟ وأليس هذا الشاب هو الذي رآه في بيت الفتاة المحروقة بالأسياخ؟ لماذا تبدل حزنه الطاغي بصراخ عارم؟!

وهؤلاء هم شباب حيه، عفاريت بيوت السعف، لم يذوبوا في الجمع، وظلوا يبحثون عن النساء بنظراتهم.

ولكن من هناك؟ هل هو إسحاق وقد اعتلى الأكتاف وراح يصرخ؟! هل هو فعلاً تحول الى . . بطل؟

إذن لم يكن هو الذي أشعل الكوخ، وحتى نصل السكين كان ليبعده عن «الكفار»؟!

هذا هدير غريب، سيل انساني يتحد في لحظة نادرة. أصواته وأياديه ونظراته تمتزج في كتلة ساخنة حميمة.

سار هذا الحشد الغريب الإليف نحو سوق الذهب الذي أُغلق على عجل، واختفى تجاره وصانعوه والهنود، وتعجب من كشك عصير الليمون الحلو، الذي راح يوزع الكؤوس دون ان يستلم نقوداً، وكان العطاشى لا يشربون سوى نصف السائل الأخضر المُشّرب بالبياض، تاركينه لغيرهم، حيث اصطخبت الأصوات بعدئذ . .

كان يود لو يكون قريباً من إسحاق . . يحدق في صراخه ووجهه القاسي الغاضب، داعياً نهر الناس الى التدفق والاصطخاب.

هذا هو صديقه، وهذا هو الذي طعنه، وربما الذي أوعز بحرق بيته وشوي جدته . . كيف يمكن ان يكون بكل هذه الشجاعة وبكل تلك القسوة معاً؟ كيف استطاع ان يجمع بين النبل والوحشية؟ بين ألق الورد وأنياب النمر؟!

لماذا لايستطيع ان يتخلص كلياً من حبه أو كرهه؟

بغتة خفتت الأصوات . ظهرت شاحنات الجليزية مليئة بالجنود الذين بدواهادئين كالصخور وخوذاتهم وألبستهم البنية وبنادقهم المنتهية بحراب لامعة ، بدت مخيفة ،لكن الجمع المغبر الصارخ الكثيف سار .

كأنه يعرف بعض هؤلاء الضباط ايضاً ، كأنه ألتصق بهم في حفلات اعياد الميلاد البهيجة ، ونافسهم في مخاصرة الفتيات الجميلات ، وأصغى الى خطبة الأحد معهم ، ومن المؤكد ان ذاك الذي يقف على رأس الحشد المسلح ، والذي يهدد الجمع الزاحف ، ويدعوه للتفرق ، جلس معه على طاولة واحدة وتبادلا الكلام والنبيذ .

لم يدر كيف إنهار كل شيء فجأة؟! الطلقات المتغلغلة في الصدور ، والأجسام المتساقطة ، كان ايقاعها السريع مذهلاً ووامضاً . الرجال الذين حوله تبعثروا أو تساقطوا .

وإسحاق ترنح من فوق الأكتاف واختفى بين السيقان والأقدام ، وكأنه دُهس أو قُتل ،لكن في لحظة مغبرة عنيفة ، رآه يهرول بين ثلة تحميه ويذوب في احد الأزقة .

الشاب الذي كان يصرخ بقربه ، معتلياً الأكتاف ، متحدياً الفضاء المستباح ، أرتمى على الأرض ، وخيطٌ من الدم ينساب من ثقب في رأسه ، عيناه مفتوحتان ، ووجهه النحيف الصارم لم يزل يحدق في الأشياء ، عند بؤرة لا تتبدل ، وانتصابة لا تختلج .

شباب حيه اللاهي لم يهرب ، وانتزع حجارة الارض والأبنية ، محولاً إياها الى هدير صخري ، ينهال فوق الشاحنات والتروس مثل وابل جهنمي مروع .

وأولئك الرجال الهادئون الجامدون المندسون في الحشد وكأن الصراخ لا يعنيهم ، مغمغمين وغير قادرين على حفظ الكلمات العربية الفصيحة المجلجلة ، كيف صاروا جبابرة ، وانتزعوا المزابل وأوقفوا بها الشاحنات؟

جره أحدهم عن السيل ، وبطحه على الأرض ، وشاهد قسماته السمراء الحجرية ، وحينذاك تدلى الصليب من صدره ، وإذ لمح دهشة في عيني الرجل البحار ، إلا أنه بغتة انفجر متألما .

رأى ثقباً ملعوناً في صدره ، وبقبق الدم وراء ظهره .

وضع يديه واحتضنه ، فراح البحار يغمغم شاكراً ، الدماء تلتهب في يديه ، وسار به تحت سيل الحصى والرصاص والصراخ والدم .

كان النهر البشري قد ساح في المدينة .

سار بالبحار نحو المستشفى ، ووجد جمهوراً حاشداً عند البوابة ،يمسك اشلاءه ودماءه ، وصيحاته تحاول ان تتسلق البوابة والسور والحراب دون جدوى .

عندما عاد الى البحار المترنح على الجدار كان قد فارق الحياة .

٣٢

كانت ميري مرهقة . كان لونها المتورد مصفراً ، بدا عليها شرود غريب ، وهو عندما دخل عليها خارجاً من حطام الشوارع ، ومنفلتاً من عيون النواطير ، كان عاجزاً عن الفهم ، يدور في اضطراب المكان واشلائه .

سقط على السرير . ووضع رأسه في صدرها . الحضن الهادىء يدق بخفوت قلق ، ونكهة الورد لم تخدره .

تطلع الى عينيها ضارعاً :

- ميري .. ميري .. قولي لي كيف جئنا الى هذا العالم؟ كيف نبتنا فجأة فيه .. وفتحنا أعيننا على مآسيه؟ ما الذي جعل خطة الرب كلها غريبة وحزينة؟ نظهر ونُدان لأخطاء صغيرة ، ثم نعذب الى الأبد في جحيم الأرض . أي ملهاة مرعبة كئيبة هذه؟ كيف نزعم اننا مخلوقات الإله ثم نتقاتل على بقعة زيت وقطعة قماش .. كيف تتحيون قطرات الأضواء القادمة من السماء .. أم نحن مجرد نبت لهذه البراري المتوحشة .. إمتداد ضار آخر للسباع والفهود؟

وضعت يدها على فمه :

- لا ، لا تقل ذلك!

- لماذا يقوم اصحاب البدلات الأنيقة والمبادىء الأخلاقية الرفيعة بإطلاق الرصاص على العزل ، على هؤلاء الطيبين أصحاب الأرض؟!

- هذا شيء مرعب . . ياللاجساد الممزقة التي أحضروها . شباب في عمر الزهور . . وثمة حراس عليهم ايضا . . ينتظرون التئام جروحهم ليأخذوهم الى السجن! ولكنهم ليسوا طيبين ايضا ، بل متوحشين!

نهض حانقاً :

- لا ! انهم مسالمون . . ميري! اننا نستلم مرايا مكسورة من الماضي . . نلبس ما يُوجد في الصناديق العتيقة من ملابس رثة . كل قطيع مشدوه بثيابه المُفصّلة لتقييد جسده وشل روحه . . لو كانت هذه المرايا تعكس الإله لما صارت سيوفاً للنحر وسلب الأرزاق .

- كف عن تمزيقي!

وكاد أن يصرخ «لو كان موجوداً . . لما . .» وسكت مرعوباً .

فجأة طالع بيوت الأرض وقطعان الحقول والبراري ، والتماعات المرايا الخاطفة ، والرجال الذين يقودونها نحو الضوء والدم والسنابل ، يصنعون مظلات ورؤى وأسربة ، والقطعان تمضي مستنزفة ، متصادمة تحلم بلحظات أخيرة من الراحة .

هتف في حضنها :

- ميري . . ثمة افكار غريبة شكاكة رهيبة تدور في ذهني . . لقد صدقتك وإلهك . . ولكنني الآن اشك في كل شيء . . انت لست راهبة الآن . . انت عشيقة رجل شكاك ، لديه كلمة طيبة للبشر . .

صاحت بدورها :

- كف يايحيى! انا تعبة وحامل . . وأود لو أتخلص من هذه النطفة . . ومن كل هذا الألم والتعب الذي يحيط بي! انت تفكر في الوجود والبشر وتريد اعادة تنظيم العالم ولكنك لا تقدر على مساعدتي انا . . ان تنتشلني من هذا العار والطرد .

انبهر بغتة . . حاول ان يجمع فوضاه فلم يقدر .

- أوقف أفكارك الشيطانية . . لعلها تزيد من تأزيم حالتنا . . لسنا متورطين في القتل والكره . . لنهتم بالخروج من هذا السرداب الطويل . . الذي لا ضوء فيه!

تخيل ان يكون أباً . . ان يضيف الى البشر مخلوقات جديدة ، ان ينمي تلك القطعان التي تحدق في المرايا المكسورة وتلبس الثياب الملوثة وتتقاتل . . وقد تصنع ضوءاً خاطفاً وياسمين وتملأ العالم ضحكا وأنساً!

الخبر المثير المفاجىء أنزله فعلا من طوابق الأسئلةالعليا الى أرصفة الأطفال الضاجين طلبا للالعاب والحلوى والدفاتر .

انه ليس لديه شيء ، وحتى هذه الوظيفة ستكون في مهب الريح!

سوف تكبر البطن ويذهل المراقبون من انتفاخ كيان الراهبة ، وحينئذ لن يكون سوى الشارع والجوع!

همست له بفكره قاتلة ، فشدها بضراعة ووله ، وقال :

- لن نتخلص من الطفل أبدا!

٣٣

خرج يحيى من الغرفة منتشياً وقلقاً . ثمة عالم جديد يجب ان يستعد له .

ولكنه وهو يخطو قليلاً في الممر اطبق عليه ناطوران . بديا قريبين من الباب ومن شعيرات عواطفه . قبضاتهما الغائصتان في حلمه وجسمه ارهبتاه ووجد نفسه يخطو فوق الممر الصلد المتلوي المعتم .

لم ير أبدا السيد تومسون بمثل هذا الغضب المكفهر . . كأنه ذئب استولى على مقعد الراعي :

- نحن انتزعناك من مستنقع الوثنيين والمجرمين ورفعناك الى ألق المسيح ، صرت تتكلم بلغة لم يحلم اجدادك بمعرفتها ، وضعناك في فاترينة ملونة ، فاذا بك تقذرنا وتلوثنا وتدمر اطهر كائن في هذا المكان . . انت حكمت عليها الآن بالطرد والعذاب والفضيحة والتشرد!

كانت آذانهم تتنصت الى عروقهما وتشكل جنينهما . . كان يظن ذلك الكهف المريمي طاهر وبعيد عن ذئاب الفلاة ونيران المجوس ، فإذا بكشافات

تبصق عليه ضوءً معدنياً ، ان النصل يقترب من بطن ميري ، والطفل يموت قبل ان يتكون .

كان رأس تومسون يقترب ، ويصبح ضخماً ومتبعجاً ، واطار نظارته يكبر ويبتلعه في ارتجافاته واهتزازاته الضوئية . . أنفه ملىء بالشعر الأشيب . . شبكة بيضاء يسبح فيها بألم .

– بدلاً من ان تلوث هذ المرأة وتفضحها الى الأبد تخلص من هذه المضغة من اللحم ، دعها تتطهر من وسخك وعارك! هيا قم وقل لها ذلك!

بُهت ، اضطرب اكثر . . اجزاؤه تمشي مع دق المواعين في الشوارع وتطفو مع وجه البحار ، وحشود العباءات السود ، وعيونه تبحث عن تلوي إسحاق بين أرجل الحشد ، ونهوضه العنيد ، وقلبه يدق كطبل لجملة ميري المذهلة ، انهار كثيرة تأخذ اشلاءه بين الحلم والكابوس . .

لكنه زحف في الممر ، جامعاً مشاعره ومخاوفه ، مبعدا الكلاب الضاجة لأكل طفله . . قال :

– لا ياسيد . . لن أفعل ذلك . ونستطيع ان نغادر مستشفاك هذا . .

صاح الآخر على الفور :

ـ كف يا ولد عن ازعاجي . . انني قادر على طحنك بطريقة لا تتصورها أبدا . سأنتزع جلدك وأجعلك تهذي وتكلم القطط!

تطلع فيه بابتسامة شاحبة وحزن غامر . . أهذا هو ذاته الراعي الطيب الذي ينتزع أورام الأجساد والأرواح ويقود القطيع الهائج البائس الى مملكة الرب؟ أين ذهبت ترانيم الأحد وصلوات الأعالي؟

بدا له انه خرف أو أصيب بلوثة مفاجئة ،أيكون قد حجب رغبات جنسية عنيقة وغزيرة وخائبة؟ أتكون الثورة في الخارج قد أفقدته عقله؟

- انت مطرود من هنا ، وميري ستدخل عملية ما ، وتكشط طبقة القذارة التي تكونت . . وانت ستتعذب كثيراً يا ولد اذا لم تنفذ ما أقول . . انت لا تعرف أي غضب يمكن أن ينهمر مني؟!

ازداد ذهوله وتخيل ميري وهي تتناول مخدراً أو تُجر الى غرف خلفية سرية ويشق بطنها ، ثم تنقطع عنه الى الأبد!

هدأ كثيراً وفكر بقوة .

- نعم يا سيدي ، سوف أقنعها . . أعدك بذلك!

انفرجت أسارير تومسون وعادت النظارة الشاشة الكبيرة الى مقاساتها الطبيعية ، فربت على كتف يحيى ، وعاد الى المقعد .

عندما انفرد بميري المذهولة ، المبعثرة بين النعاس والتعب والغضب ، جمع حاجياتها ونقودها في حقيبة ، وأمسكها وهما يقفزان من النافذة ويتسللان في ممرات جانبية ، اخذتهما الى المقبرة المعتمة ، ذات الصرير الجندبي والشوك ، وكانت الحقيبة تصدم الشواهد وتوقظ الموتى ، وهما يركضان ويلتصقان ، ويلهثان ، ويلتفتان الى مسامير ضوئية تبحث في العتمة عن احشائهما ، ويكادان أن يتعثرا فيتأوهان من الحصى والعظام ، ولكن درب الزوار المُترب الضيق المتلوي يأخذهما الى الشارع المضيء .

٣٤

كـان غـريبـاً ومـذهلاً أن تلتـصق به فـي حـجـرته طوال الـليل . أن تمسكه بساعديها الابيضين ، ويطيران معا في نشوات ملتهبة .

المروحة تفح وتوزع الهواء ، والأزقة تصنع الضجة والخبز ، والسوق القريب يفتتح دكاكينه عند نبض رأسيهما ، والباعة المتجولون يضعون تحت اقدامهما الخضار والحليب وحكايات المدينة .

غرقا في العزلة والقبل والضحك والكلام والقراءة . كأنهما يلتقيان لأول مرة ، تجـردا من ذكـريات الدم وسـيـارة الحـاج سلمـان المرعـبـة ، وتداخلت البـشرتان في المياه وغرفا لبعضـهمـا ، وتركت الصـابون يملأ رأسـه ووجهه ، وبحثت عن أنفه لتقرصه .

كان يتطلع بدهشة وعدم شهية الى مأكولاتها المسلوقة التي ترتبها بمهل في الصحون . وهي تذهل من قدر الأرز المـتلـىء الذي تغرق فيـه سـمكة كبيرة طازجة ، ليغدو الأرز أصفر ومتجمعاً في صحن كبير ، تتوغل فيه يده مصطدمة باللحم والعظام!

كانت ملعقتها تقترب بخوف من تل الأرز واشعاعات دهنه وليمونه ، وحين تطبق شفتاها على ذلك التجمع الغريب تحس بلذة ، فتندفع لالتهام السمكة وأرزها ، وتسحب عظامها من يد يحيى وتدقها بأسنانها!

وحاولت مرة أن تصنع ذلك الأرز الاصفر الفوضوي فحولته إلى عجينة ، لكنهما أكلاها بضحك طفولي .

لكن الضحك يتقطع ، وحرارة الجو الفظيعة تشعل الحجرة مع جثوم الصيف ، وتظل راقدة في السرير ، مثقلة الجسد .

تخلو الثلاجة الصغيرة من الأكل ، وهو يدور في الطرقات بحثاً عن عمل ، تصفعه وجوه الأوروبيين والهنود في الشركات والبنوك بالنفي ، وتقع الشمس على رأسه مثل التنكة الملتهبة ، والشوارع تغلي ، والمرأة وحيدة في الغرفة ، يخشى أن تسأم وتفر من ذلك المخزن الرث ، ويسألها بإلحاح عن صحتها ، لكن ميري لم تكن سعيدة مثل هذا الوقت . انها حرة تماما ، ومعبودة ، وغدا جسدها مفعما بالحياة والحب ، وزمنها لها . ان صرخات الذئاب والجرحى وراءها ، وهي لا تنقذ البشر الموتى ، بل تصنعهم . وكلما حزن يحيى وخلا المنزل من الأشياء أخرجت اوراقاً صغيرة لتتدفق الضحكات والسمكات والازهار في تلك الغرفة الضيقة التي تتسع اجزاؤها وتحتضن المرايا والتماثيل والزجاجات المليئة بالورد .

ويقتحم الشوارع مجدداً ، ويجد ان لعنة تومسون تحوم في كل مكان ، واسمه يجابه بالرفض . انهم يتفحصونه ، ويضعون لافتة «ليس ثمة وظائف شاغرة» أمام وجهه .

يتساءل : هل يذهب لإسحاق الذي قد يجد له عملاً؟! انه غدا شخصية مرموقة ، يحتشد جمهور لسماع كلماته الصاخبة المتوعدة . لكنه يتجاهله

تماماً . جلس مرة قرب طاولته في نادٍ مزدحم ، لكن الخطيب لم يكن مبال به . وقد امتلأ الآن ثقة وشموخاً .

يكره أن يعود الى المنزل ويتسلم أوراق ميري النقدية . يكره أن يسلب هذه المرأة ويحتجزها في عالمه الفقير .

يدخل صفوف عمال يهدمون بناية عتيقة أثرية . الجدران الشامخة تنغرز فيها المعاول ، وكتل من الغبار تتفجر وتنقذف في الوجوه .

وفي العشية يُطلق سراحهم . لديه بضع نقود صغيرة مشجعة . يمضي سعيداً نحو المنزل .

سمع ضجة في الزقاق الذي مشى فيه . رأى ثلة من الشبان تكتب على الجدران شعارات حماسية بأخطاء إملائية مضحكة .

اندلعت صافرة حادة بغتة ، وأطبق عليهم رجال الشرطة . وأخذوهم في سيارة مغلقة الى القلعة . ألقوهم في زنزانة رطبة ، وكانت ثلة الشباب تتطلع فيه باستغراب وضيق .

في الصباح اخرجوا بعضهم ولما عادوا كانت ملابسهم ممزقة ، وأخاديد السياط على اجسادهم . وكان من ضمن الدفعة الثانية ، ووجد نفسه في مكتب عارٍ إلا من طاولة وكرسي ، وثمة ضابط انجليزي يحدق فيه .

هذا الوجه سبق أن رآه . ليست رؤيا ولكنها صيحة ظهيرة شرسة ، عبر ومضة سيارة مسرعة وسط الحشود المشقوقة . اسم مألوف مدوٍ . ظنه قد اكتنز بحكمة الغرب : عصارة لقطاراته ومكائنه وكتبه . لكنه فوجىء بسوقيته ، وبهت من يده وهي تجره من قميصه وتصفعه . تطلع فيه باحتقار وكره . هذه البشرة الوردية التي ظنها طريق الشمس وهي تصنع المدن وراء الأفق ، صارت لهباً .

فوجىء الضابط والقميص يتمزق بتدلي الصليب بين يديه :

ـ من أنت؟ ما هي حكايتك؟

أجلسه على الكرسي وأعطاه سيجارة وابتسم اليه .

لم يقل له عن اضطرابه وقلقه وبحثه ، عن الحشود التي كرهته والمغامرة التي نزل اليها والضباع التي ألتهمت ساقه وتاريخه ، وعن الشوارع المزدحمة بالعربات المصفحة ، بل زعم انه ذهب مرة الى كنيسة ووجد السلسلة وأخذها وراح يتباهى بها امام الأولاد!

حدق فيه الضابط منزعجاً وأمطره بالأسئلة والصفعات .

٣٥

مضى زمن وهو يتعفن . زملاء الزنزانة الذين كانوا أسباباً لعذابه هم الذي خرجوا! وذهل وهو يجدهم يضحكون ويصفقون الباب وراءهم ، ويسمع ثرثرتهم تتجه نحو الشوارع المفتوحة .

كان لا يجد صلة بين من قدم نفسه هدية للبشر ، ولغة السياط المدوية . كان يراه حبة ضوء غامر أمامها أسوار ذات أسنان معدنية ضارية .

كان الضوء يتلاشى في سخام النهار عند ما تطل الوجوه الصخرية ذات الشوارب المعقوفة .

سمع صوتاً بعيداً :

ـ يحـ . . . ى!

تحسس صليبه ، وأيقن إن امرأته تصرخ في وجه الأفق تستنشق رائحة حضوره .

وعاد الصوت أقوى من السابق :

ـ يحيى!

انه صوت ذكوري مألوف ينبعث من الجدران . ان ثمة ثقباً يمتد الى الزنزانة الأخرى التي كانت خالية . يندفع ليرى الرجل الذي يعرفه ، فوجد عيناً ليست غريبة عليه .

ـ إسحاق!

ـ أهدأ ، صوتك مرتفع!

وغمرته ضروب متضادة من المشاعر . وحدق في عدوه وصديقه وجاره ، الأخ الذي طعنه وتسبب في موت جدته وحرق كوخه ، الذي تقاسم معه الخبز في الضهائر النارية ، وتعلم منه الكلمات المثيرة والحب والكراهية الفظيعة .

إنه يائس تماما منه ، غير ان وجوده المفاجىء المذهل عبر هذا الحائط الغليظ ليس سوى نعمة من الإله . بل جاء في اللحظة التي لا فائدة فيها منه .

لماذا هو هنا؟ لماذا صوته مختلف ومبحوح متحشرج؟ لماذا عينه متورمة؟ هذا الصديق الأليف والعدو المخيف الى أين يقود نفسه؟ لماذا صعد فوق موجة صاخبة عنيفة؟ لماذا يكرهه ولا يريد ان يكلمه؟

لم ينس طعنته القاسية الضارية .لم ينس وجه جدته المتفحم ،لم ينس كل ليالي الكوابيس المرعبة!

هل وجودهما في زنزانتين متجاورتين يلغي المسافة بين النصل والجرح؟ هل يعطيه الفأس ثانية؟

حلت فترة صمت طويلة وعميقة ، راح يسترجع فيها وجه هذا الجار الغريب ، منذ صراخه ضد إيمانه ، الى غيابه المثير وانغماره في الحشود والأزقة .

ان ثمة شيئاً رائعاً تكون فيه ، وان ثمة شيئاً رهيباً سيئاً ينضح منه . وجهان للملاك والشيطان ، للثمرة وللحشرة .

انه يحبه ويكرهه معا . يريد ان ينهمر بالكلام معه ، مستدعياً كل تفاصيل لقاءاتهما الاولى وحكايات الطفولة والبحر والعمل ، تلك الايام الرائعة ، لكنه يخافل من ذكريات العداء والكراهية .

طال الصمت بينهما ، وغدا الجدار صلداً وهائلاً ، رغم اصواتهما المشتركة في المناداة على الحرس واستلام الأكل والضيق بالحر وتجنب قطرات البول التي ترشح من السقف وتنزل عليهما في خطوط بيضاء عفنة .

أكان أحد يتنصت عليهما ويرقب الكلام المنتظر؟

لم يخف من ذلك ، ولكن كم الكره المتراكم منعه من الاقتراب .

وسمع باب إسحاق يُفتح ويُؤخذ فأندفع الى الشق الفارغ . في الصباح التالي ، أخذه الشرطي لدورة المياه في عمق الفجر ، حيث تخلو الساحة من طوابير العروض العسكرية وتدفق الموظفين والاسلحة ، وانتظره قرب باب الحمام .

الاغتسال السريع والروائح الفظيعة لم تمنعه من سماع تأوهات حادة . كان شرطي آخر يقف على باب الحمام الثاني بعيونه الضارية وسلاحه المشهر . انتظر وانتظر حتى ظهر السجين الآخر . لم يكن سوى إسحاق ولكنه منتفخ الوجه ، كل جسده خريطة من شوك وحفر زرق وحمر . كان يترنح ، ويبصق دماً .

رآه ناحلاً طويلاً . يمشي بانحناء نحو الزنزانة التي بدت بعيدة . بعيدة . لم يستطع الا أن يكلمه عبر الثقب عن زمنهما الاول ، عن السراطانات التي ثقبا ظهورها بحربتهما ، وعن الشبكة المهترئة التي لم تصطد شيئاً ، وخبز

الظهيرة اللذيذ في ظلال السوق الهاربة والتسكع والشقاوة!

وكان الآخر لا يكاد أن يتكلم ، ثم نام طويلا ، وصحا في اليوم التالي اكثر قوة ، لكنه لم يضحك للذكريات ، ولم يمر على الزمن الأول ، وراح يسأله ويفتت صدره عن سنواته الاخيرة .

عينه المتضخمة لا يرف جفنها ، ونظرته ثابتة صلدة ، وكلماته ثقيلة باردة تندس ذيولها في ضميره وتبحث عن حفر موهومة .

لم يجبه ، وترك الجدار حانقاً .

كره نظرته الوقحة المتعالية ، وعدم اعتذاره عن ضربة النصل المجنونة ، وعدم مبالاته بتوقيفه ، وسخريته منه .

وفي احدى الصباحات المليئة بالحر والرطوبة ، فتحوا له الباب لكي يخرج الى الشوارع .

كان في ارتباك عارم . وكاد ينسى إسحاق وهو يعبر ، تطلع الى الباب الحديدي الغليظ . لاشك انه يتطلع اليه الآن ، دون أن يُصدر نأمة!

٣٦

في الليل ، مع زقزقة العصافير العائدة الى شجرتها ، في جحيم العرق والرطوبة والروائح الفظيعة ، كان يعيش معها ، لم يكن يتذكر ، كانت في جلده ونهوضه وجثومه ، كانت عيناها وبشرتها الحليبية وعطرها وثرثرتها النادرة تلغي القيظ المسلح المحيط .

الآن يدرك انه مربوط الى هذه المرأة بكل تضاريس روحه ، يتخيل ترنحهما في سيارة المستشفى ، واللمسات الاولى ، والعناق العنيف الذي في غرفتها ، واللذات المثيرة التي صنعت وقتهما البهيج الخاطف .

الآن يبدو باب القلعة المفتوح على الميدان والمدارس والأزقة والسماء كأنه الطريق الى الجنة .

كان وقوفه على باب البيت مثل تدفق الايمان العارم في قلبه . مثل اكتشاف اللغة والصداقة . انه يخاف الآن أن يكسر ضلوعها بعناقه .

لكنها لم تكن هناك ، وظل ساعات قلقاً وجائعاً حتى فتحت الباب واندفعت اليه . كان فراقاً مخيفاً ، تشرشر جوانبه بالرعب والقلق .

المرأة التي توقع جثومها بين الجدران اشتغلت ، واندفعت في كل جهة تبحث وتدافع عنه .

لم يكن يستطع ان يحضنها . راح فقط يتأمل التكور الواسع المدهش لبطنها ، حيث تنساب حياته القادمة . بشرتها غدت أقل بياضاً ، وبصمات جولاتها النهارية مرشوشة بخطوط حمراء على جبينها .

تصدعت روحه لمرآها ، وحين شرحت له عملها ، والنهارات الفظيعة التي قضتها في الانتظار والركض بين المكاتب ، ثم الوظيفة الرائعة التي حازت عليها ، والقوة التي اكتسبتها منها ، والعمل الذي اعدته له ، كان اعجابه وامتنانه يطغيان على القلق والشكوك .

فليتأمل هذه المخلوقة الساحرة ، هذه الأم الصغيرة ، ولتتداخل طقوس الحب والعرس بتقديم الطاعة لرؤسائها ، هؤلاء الموظفون والضباط الذين يمسكون مفاتيح الوطن كله .

لكنه يُقحم في عربة مصفحة ويتوغل في النار ، يدهش من انكسار الصليب والغضب ومشاعر الثأر ، وتفاقم العبادة الكلية للمرأة ، وإسدال الستار على مشاهد الرعب والدم ، ليتوجه باستكانة الى مبنى عمله ، حيث تقع جريدة في مبنى كبير ، يصوغها موظفون انجليز وهنود وعرب ، ويروح هو يترجم بيانات وأوامر إدارة الاحتلال .

أي جو مقبض رصاصي يحيطه؟ أي تقارير غريبة عليه ان يتقيأها بلغة ناصعة ، وهي تقذف تهديدات مروعة وانجازات زائفة ، وأُعطيت له زاوية صغيرة ليقتبس ويعظ . فكانت الكلمات تغص في حلقة مثل عظام السمك .

يرى الحوانيت الصغيرة المتزاحمة ، والجمهور الفقير المحتشد ، يدفع

العربات ويتلقى الجلد في سوق الأربعاء ، ويبيع أشياءه المستعملة وأجزاءه .

يغلي وينقذف في السوق المشتعل ، ويطالع الوجوه السمراء المحفورة بأنصال الشمس والبحر .

مرصود ومحاصر في الزاوية الضيقة ، قرب النافذة ، حيث الشوارع تمشي بعيداً عنه ، مُحدقٌ ومصغٍ الى هؤلاء الكتبة ومعاركهم الكلامية حول رداءة القهوة ومناخ البلد الرديء والشعب الغبي .

يحاول أن ينسى وهو يغسل جسد ميري من العرق وغبار المكاتب . . لا يستطيع أن يشكو أمامها ويتذكر مشاهد الجريدة . وهي لا تكاد ان تطالع اوراقها الباهتة . تتثاءب وتنام ، وتتركه للظلام يحاسبه .

في الصباح يسرع الى موقعه ، مّمسكاً بالورق ويبدأ نشر عظام روحه . في مكتب المحاسب يسترد شيئاً من عافيته . النقود التي لم يأخذ مثلها أبداً ترتاح في جيبه ، ويمضي الى السوق اكثر هدوءاً . ثم يتمدد بارتياح قرب ميري وأكياس كثيرة تتماسك فوق الطاولة كعصابة من الورق .

٣٧

يغص بتفاحة لذيذة ، والشاي يسبب له صداعاً ، الصليب يتوارى في الخزانة ، والأثاث الفخم يتسرب إلى شقتهما الواسعة ، في العمارة الكبيرة الجميلة على شارع المطار ، حيث الأوروبيون هم جيرانهما وأصدقاؤهما .

أمامه البحر ، يطل أزرق عميقاً واسعاً ، وثلل السفن الخشبية تتهادى على صفحته نحو الميناء القريب . لكن السأم يتلمكه ، والكآبة تستوطن غرفة صدره أبداً .

ثرثرات الجيران والأصدقاء عن الاستعدادات المبكرة لأعياد رأس السنة ، وأخبار الأهل فيما وراء البحار ، والأحاديث المطولة عن اللحم والخبز والبيض والأثاث ، وميري مندمجة بحضور كلي في هذه الاجتماعات اليابسة ، ولولا الخمرة والسجائر لألقى بنفسه من النافذة .

إنهم يفتحون عليه الباب في عمق الليل ، ويمسكونه من رجليه ويجرونه ، لتترنح رأسه فوق درجات السلم ، وأولادهم يطلقون في وجه النفاخات ضاحكين ، ويقذفه عجوز ببصقة ، ويسحبونه فوق الشارع وعلى الرمل نحو

الشاطىء ، حيث «يقلقصونه» في الشقوق طعاماً للسراطانات الصغيرة ، التي تستخدم كماشاتها لإلتقاطه وإدخاله في أفواهها المربعة المفتوحة . .

ينتبه فإذا ميري تئن . لم تعد تذهب للعمل ، وبطنها منتفخة كبيرة مثل بالون يكاد ينفجر . يسألها : إذا كان هذا هو موعد الطلق ، لكنها تتثاءب مصدرة أصواتاً بشعة .

الفراش الواسع الوثير ملتهب ، والخمرة المُرة الكثيرة التي يتجرعها تقيئه . وجهه غريب في المرآة .

كانت هناك أحلام ورؤى في هاتين العينين . كانت السطور الكثيفة تأخذه الى جهات عليا ، كان يجدف بقاربه نحو الشعر والرؤيا ، كان يقترب من نهر سماوي . .

والآن هو في دورة المياه الفائضة ، يجره نملٌ كثيفٌ إلى الجوارب غير المغسولة وشقوق البلاعة الضيقة ، ويرى وجه ميري المتعب يسأل عن الأدوية ويصرخ في الشراشف القذرة ، وهما يتعاركان فوق السطح بين الغسيل المتطاير والريح وضجة الطائرات العسكرية المدوية الهابطة .

سيذهب إلى إسحاق . سيسأله أن ينقذه من هذه الكتابة والرتابة ، من هذا التحجر الذي أغلق كل غرف ذاته ، وكلما فتح واحدة وجدها فارغة ، وثمة جماجم من كل عصور الألم . .

يندفع إلى الأزقة والمقاهي ويسأل عنه . الكل صامت . يتوجه إلى الدكاكين الصغيرة في الحارات ، حيث رجال البحر يلعبون الداما . يتظاهرون بعدم معرفته . لا تستطيع أية بائعة باقلاء أن تقوده إلى منزله ، وأولاد الكرة والشغب يتنصلون منه ويصفرون في وجهه .

وحين مشى مُنهكاً في زقاق ذي رائحة أليفة وبهيجة ، أطبق عليه رجال

غلاظ وأوسعوه أسئلة وحصاراً حتى هرب بعيداً عن شبكة الطرق الأفعوانية الرهيبة ، عائداً إلى جلسة الجيران وشاشة التليفزيون المبهرة التي راح الجميع يحدق فيها .

البناية الأنيقة صارت بنايات ، وثمة سور حديدي يفصلها عن عمق المدينة ، وراحت الثلة تمتلىء بقادمين يأتون شبه مُعْدمين وبحقائب فارغة وبنطلونات جينز متهرئة ، ويسكنون الشقق العارية ، التي تمتلىء وتزدهر بالسجاجيد والثلاجات والكريستال والأطفال الذين يضجون بالعافية والأغاني . .

ويأخذهما الجيران إلى أصدقاء لهم في الريف ، حيث البيوت الفاخرة المتوارية وراء ثلل النخيل والأشجار ، والبرك وضجيج الماء .

يثرثرون ويغنون وتمتلىء الطاولات بالأطباق وتنتشر السفافيد التي تقلب لحوم الخراف ، وتزهو الكؤوس المترعة . .

وهو لا يستطيع أن يمضغ اللحم واللغة ، ولا يعرف لماذا تراءت له صورة حيه القديم ، وعربة علي المدخن تلهب الأرض الساخنة بعجلاتها . يترنح نظره على الحضور : صفان طويلان من الرجال والنساء ، المشعشعين تحت اللمبات الملونة الصغيرة والشموع ، تتآلف هزات شوكاتهم مع الموسيقى الراقصة ، التي تأخذ باقة منهم في عناق مُلتهب تحت الضوء .

وفجأة صاحت سماعات بلغة عربية صاخبة ، وجاءت تأوهات زاعقة ، فكادت أطباق الورق أن تتطاير من الأيدي المنزعجة .

قال أحدهم شيئاً انفجروا له ضاحكين .

تحدث غاضباً فلم يلتفت إليه أحد . صرخ فلم يُسمع .

ترك المحتفلون الطاولات واحتضنوا بعضهم ورقصوا وداروا .

لا يعرف كيف وصلا إلى البيت ، ومن أخذهما إليه ، وكانت ميري تستند إلى جذعه المهتز .

نام وهو صاح . رأى حيه العتيق . كل وجوهه تحدق فيه . حتى دخل علي المدخن وأخذه إلى عريش محترق . هناك رأى ولده غلام ميتاً ولكنه لا يزال يسعل .

٣٨

يركض ، يلهث ، وراءه صرخات ميري وبكائها .

ـ ماذا بك يا يحيى ، ماذا حدث لك؟

تضم رأسه المتمرد إلى صدرها لكنه سرعان ما يختفي وراء الورق ، أو يلفحه الهواء الخريفي الملتهب القادم من أغوار البحر المتقلب ، ومن القارات البعيدة للمناطق الجنوبية الشرقية . .

كأن ليس ثمة شيء يربطه بهذه المرأة ، سوى مضغة اللحم النامية بقوة الآن . . دهشتها تتحول إلى غضب عليه ، كأنه يقترب من بؤرة كرهها . لم يعد ثمة شيء عزيز لديها بعيد عن شكوكه . رؤوساؤها وصحيفته وترانيمها وصلواتها . برودها الطويل وصمتها ومحبتها المرهفة تتحول بغتة إلى صراخ . تكاد تخمشه بأظافرها ، صفعته مرة بقوة ، فأرتجف ، وظل صامداً جامداً ، حتى انهارت فوق صدره تجهش بالبكاء .

ليس لهم علاقة بالإله الذي صُلب ، إنهم حشد من الذئاب الضارية القادمة من وراء الصكوك والأسهم .

يصيح بها :

ـ ألم تري سكان الأكــواخ؟ ألم تمزقي دمــاملهم بمشــارطك؟ ألم تري الأسياخ المُحمرة تدخل جسد الفتاة القتيلة؟

تقول :

ـ انظر إلى هذا العش الهادىء ، هذه الثلاجة المليئة بالفواكه والدجاج ، وهذا السجاد وتلك المكتبة . . هل لمست طوال عمرك السابق شيئاً منها؟

تنهشه هذه الكلمات وتلقيه على الأرض ، الأرض الخالية التي تعود إليه ، ملكية البحارة والفلاحين والقبائل المحضة ، ويدرك انه ضائع بدون المصباح والجريدة والمكتبة ، وهذه البشرة النقية التي يحبها ولا تفهمه ، وبدون السجاد والجلد والعقل التي دُبغت بالآلات .

يحاول أن يتجرد وينسحب من كل هذا العالم المجلوب ، الذي بعثر أهله وضميره في شقوقه وألقه .

ويجري نحو البحر ، يُجدف في قارب ويحاول أن يلقي الشباك ويصطاد السمك ويختفي في عشش الصيادين المترامية على طول السيف . لكن الهواء الناري ، والشمس المعادية ، والخيوط المقطوعة ، والحنين ، ونداء الفراش الوثير ، والجسد الأبيض ، تعيده إلى الشقة الباردة والأثاث المتعقل . .

ليُجابه بالمهمات المرعبة ، وكتابة أسطر الزيف ، وخداع الحمام ، وبالسخريات من الثياب والعُقّل والعباءات والمساجد ، فيجري منفلتاً إلى الشوارع الضيقة ، وشبح ميري يترنح في النافذة وكأنه يراه لآخر مرة .

يأخذه الرجال السمر إلى أعماق الأزقة ، في طُرقٍ ملتفةٍ كأنها حجر يهذي ، أو دوار أرضي ، يدخلون أكواخاً ، ويعبرون سعفهاً المتلاصق ، ويقفزون فوق حشود الأطفال المتلاصقين النائمين على الحُصُر ، يفتحون أبواباً

عليها نخيل متعانق وخواتم وقواقع يسيرون في براحات تكتظ برجال يسمرون ، يعطونهم الأمان للعبور إلى جزيرة في البحر ، ممتلئة بشجر وبيوت خفية .

هناك رجل يصعب أن يراه . توارى عن الشمس والمصابيح . كلما همس بأسمه أنتفض كتفٌ وشارع . كلما قال انه يعرفه أنقض عليه المخبرون .

رجلٌ خرج من جلده بسكين ، وكرهه إلى درجة انه حلم بقتله ، وأحبه إلى لحظة تخيل انه يركع تحت قدميه ، ومُشعلاً النار في ماضيه .

كأنه يود أن يصرخ :

ـ أيها الرجال السمر ، يا قواقع البحر الحية ، خذوني إلى صديقي الذي خذلته! «يا الهي ، كيف تُصنع النجوم من تراب الأيام ، وأنين الأزقة ، ورماد الجراح! انني لستُ سوى طفل أضاع طريقه ، وألتحق بقافلة معادية ، وتبرع للثعالب بقلبه!» .

أصعدوه إلى برج يطل على الخليج ، كانت الشطآن والسفن والمدن مسبحة بلا خيط .

في الغرفة المُحدقة بخريطة الأرض والبحر جثم شخص كاد أن لا يعرفه . لحيته الكثة ونظارته وعباءته الرجالية الرقيقة وثوبه الناصع ، المتوهجة كلها بقنديل جانبي ، بدت لوحة كلاسيكية عظيمة .

أهذا هو الصبي الذي جرى معه في الأسواق وأصطخب معه في المستشفى ضد الجراح ، ورآه صلباً ومصلوباً في ساحة «النيشان»؟*

من الذي يصنع الأبطال ، الريح أم البلاط ، الجوع أم السياط؟

دعاه للجلوس بهدوء . غرز فيه نظرة شاملة .

قال :

ـ سمعت نداءاتك الكثيرة وأسئلتك الغريبة وقرأت سطوراً قليلة مدهشة منك . . أشعر انك بدأت تدرك الحق . ولكن تلزمك تضحيات جسام . لقد ضيعت وقتاً طويلاً . وهاأنتذا تريد ان تبدأ . . تبدأ من الصفر!

لم يسقط على الأرض ويترنح تحت قدميه ، لم يتبارك بأصابعه وعباءته ، بل جلس جاثماً ملتصقاً بذاته وذكرياته ومشاعره . وكأن سكيناً جديدة لمعت بينهما . كأنه كان يريد أن يسأل أسئلته المخيفة عن «الحق» ، و«الطريق» ، والوقت الضائع . كانت لهجة إسحاق القوية الصارمة ، ووجهه الصلد ، ونظرته المتعالية ، قد قزمت روحه . أحس انه جاء إلى بيت لم يدع إليه ، وان ماضيه لايزال مريباً ، وفكرته مدانة .

ـ إذا أردت أن تلتحق بنا فهناك مهام كبيرة . أن تنفصل عن زوجتك . . أن تقتل . . أن تقطع أجزاء دنسة من جسمك . . انه تنور رهيب قد تُخبز أو تحترق فيه!

كان يريده أن ينفجر بضحكة عارمة . أن يسحبه إلى النافذة ، ويضمه إلى كتفه ، وهما يتطلعان إلى مياه الخليج الحية .

فكر فجأة : انه يكره ماضيه! انه يريد أن . . يسحقه!

وهو متأكد بانه لن يستطيع تنفيذ كل تلك المهمات . لن يغمس يديه في الدم ، وسيبني أرضه ويطرد الغرباء . . لن يعطي فكرته قذارة القتل ووضاعة الذل .

---

* ساحة الأهداف والرمي في القلعة .

٣٩

كـان الليل المخيف وأضـواء السـيـارات إنذاراً مـبكـراً . إلتـفـافـات الأزقـة تأخـذهم الى الأمكنة المكشوفة ، عيون النواطير والحراس تجمـدهم في البقع الخلفية .

يتحولون إلى خليط دقيق يخرم الجدران والأسلاك ، ويقفز حائط المدرسة المرتفع . قلب يحيى ينبض . إنه يقتـحم الفصول لأول مـرة ، يرى طباشـير الأطفال المكسورة مثل أضراسهم ، ورسوماتهم الفرحة وسط العتمة .

هذه الشمس مثل الوجه ، وذاك القارب لن يغرق أبداً !

خطواتـهم تقـتـرب من غـرفـة مـا . قـائدهم يلتصق بالجـدار ، وكـحـة ناطور بعيدة تخنق الأنفاس .

لم يتصور يحيى أبدا أن يكون هذا الهجوم بقصد سرقة آلة طباعة .

لقـد وُضـعـت بين صـدره ، وأخـذ الطابور يعـبث بـالإدراج والخـزانة ، حـتى خرج من جديد الى ضوء القمر ، مُلتصقاً بالحوائط وخرائط الجدران .

لـم يصـدق ان المهـمـة بكل هذه السـهـولة . وها هم يقـتـربون من السـور ،

والآلة الثقيلة ستصل الى المخبأ بفضل صدره .

لكن بغتة تسلط ضوء ساطع على وجهه ، وسمع صرخة :

ـ قف !

وكادت الصفارة أن تصل الى فم الناطور لولا أن امتدت عصا القائد الى رأسه . سمعوا آهته المكتومة ، والصدع الذي فتق عظمه . .

لقد تطلع يحيى برعب الى الرجل الكهل ، الذي أخفى الظلام أكثر ملامحه ، ولكن ظهرت الخطوط العريضة لرأسه وكوفيته ، والخطوط المتخيّلة المتفجرة لألمه .

تجمدت الآلة على جسده ، وظل قلبه يطبع الرعب والدهشة . حتى هزه أحدهم فتسلق الجدار واستلم أداته بين خطوط الأسلاك المقطوعة لائذاً بها الى الأرض .

هناك في الأضواء الشحيحة كان عليه أن ينتقم من جريدته . أن يكشف حزوز الأرض وأسنان العلل التي تقضم المجهولين المقبورين في زواياهم وحظائرهم وأسياخ الحديد والمشارط المهترئة والأسرة القذرة والقلاع الجهنمية تطحن عظامهم .

كانت أصابعه الصيادية تدوي على الحروف ، غير ملتفت الى النظرات المتشككة ، والأصابع المتحسسة لجسده .

وذات يوم راح يطبع سيرة عجيبة لإسحاق . ظهر إبناً لبحار غريق ولأم حزينة لم تصمد للوعة ، وخاض غمار الحياة الصعبة متعلماً من قراطيس المزابل .

لم تستطع يده أن تواكب لغة السيرة الزائفة . كانت جملها المثيرة ، وأوصافها الغريبة الزاعقة ، تفرمل أصابعه .

لم يقدر أن يصل إليه .

ثمة طبقات من الرجال والتقارير والظلمات والحجرات تحول دون وصوله الى «الزعيم» .

إنه في الخلايا الدنيا ، والغرف الجماعية ، وهو عضو لم تكتمل أجنحته ، والشكوك تحيط به .

وحين أراد أن ينطق أمام أحدهم عنه ، دُهش لاندفاعة ذلك المُريد والهالات النورانية التي انهالت على إسحاق . لم يعد يعرفه ، لم يلتق به ، لم يتعاضد ويتزاحم معه ، لم يُغص خنجره في خاصرته!

ثمة دبيب ناري عاطفي مُشع يكهرب كل شيء ، ويشل الكلمات المتسائلة والنظرات الحذرة والصرخات الخائفة .

«أيها النهار الجميل المشلول ، أيها الحقد الساذج ، أيها الفعل المغلول ، أيها الأحبة الأعداء! يستحيل أن تطير فراشة حرة هنا . يستحيل أن تتشكل نأمة مغايرة في هذا الحقل المحروق!» .

في جوف هذه اللحظات المروعة يصلي للرب من أجل أن يتصل بميري . ليس ثمة سوى هاتف واحد في الأعلى . ليس ثمة قدرة لأحد كي يتصل بالخارج إلا «هو» .

يطبق يحيى على الفراش وعليها . يجد إن خدها قربه . يسمع صيحاتها وهي تلد . يدهش من سلامها وكلماتها . يحن إلى تأنيبها . لكنه لم يرأف برؤوسائها حتى في أحلامه وفي رسائله المائية إليها .

ليس ثمة حتى ساعي بريد هنا! وكل الأوراق والأقلام والأيدي والنأمات محسوبة .

أخذوه في مهمة كبرى . كانت الشوارع قلقة . مزدحمة بجمهور غاضب .

ثمة أعمدة صغيرة للدخان . شظايا الزجاج المكسور متناثرة في الطرق .

لأول مرة يتدفقون في النهار . يصلون قلب المدينة التجاري ، حيث حارة اليهود وسوق ذهبهم وصرافاتهم . الطريق العام مليء بالشرطة والأنقاض . وثمة فارون يحملون حقائبهم وسيارات تتعثر بالحواجز .

توغلت ثلة يحيى في تلك الحارة من طرقها الخلفية . منقضة على البيوت الموصدة . يكسرون باباً ويقتحمون . يرون رجلا كهلاً مرعوباً ، يحاول حماية زوجته وأبنائه .

يبعدونه بقوة ، ويبحثون عن الحلي والمال . الأشياء تتكسر وتُقذف والثروة لا تظهر ، يجرون العجوز بين صراخ الأطفال ، ويوضع النصل على عنقه حتى تفتح أصابعه البلاط السري .

بيت آخر يُفتح ، ويطل شابان يقاومان بضراوة ، الصرخات تتفجر ، وإلتماعات السكاكين والعصي والأجساد ، تشكل خيوطاً من انفجارات ودم .

ثم لم تبق في البيت سوى جثتين .

خيوط الدم ، العيون المرعوبة الصامتة ، البنطلونات المكوية التي لم تُلبس ، الضجيج الذي لم يزل هادراً في سكون المكان ، كتب التراث العربية الكثيرة التي لم تُسرق كالمواعين . . تجعل يحيى يتخلف في آخر الركب ، ويتعثر برذاذ الموت المنتشر .

لم يعد يفهم لماذا يسرقون الأشياء والحياة؟ أين يجري دم الموت هذا؟

يسمع استغاثة أنثى هذه المرة! لقد اقتحموا بيتاً آخر .

يقترب ، يرى جانباً من امرأة فاتنة .

كانت تقف وراء متراس من خشب ، وتلوح بسكين .

البيت شبه خال ، ولا شك أن أصحابه لاذوا بالفرار ، ولم تبق إلا هذه الفتاة المضطربة .

صف الرجال يسخر من يدها المرتعشة الرقيقة ، ومن سكين المطبخ . فزع الفتاة يدفعها لإنتزاع ذهبها وإلقائه عليهم .

يتذكر هذا الوجه . إنها سارة فتاة الجبل التي رقصت معه . التي طلبت منه أن يزورها ، ونساها تماماً .

يتمعن في وجوه الرجال التي امتلأت بالشهوة ، وقبضاتهم التي ارتخت عن العصي والقضبان .

وقف أمامهم وتصدى لتدفقهم المسعور . أزاحوه .

كان أحدهم ينقض على يد سارة وكتفها وراح يحتضنها ويقبلها!

الجسد الجميل المضطرب يستباح ، أجزاء مهدورة من الحليب والفضة ، هياج حمامة يتغلغل فيها نصل ، والرجل الأسمر مثل حيوان ضار .

كان يحيى لا يصدق ما يراه . تحولت الرسالة الى ماخور ، وراح النور يتغذى بمجاري المدينة .

كانت الثواني تدب ببطء والتأوهات تصيبه بالتقيؤ . .

كانت يده تقبض على جسم معدني حاد . سكين الفتاة لم تزل ساخنة .

لم يعرفه أحد وهو يصرخ . اعتقدوا انه قريب اقتحم المكان فجأة . وحش طلع من وحشة البيت .

كان يغرز نصل السكين في كتف الرجل .

امتد نصله الى الوجوه المتراجعة ، آخذاً بيد سارة وبملابسها الممزقة وشظاياها ودمائها الى الطريق .

٤٠

عاد إلى عشه .

تلك الدائرة من السياج والعمارات والحدائق واضلاع شاطىء البحر ، كانت حلماً في أيامه السابقة .

لم يتوقع أبدا أن يعود إلى هنا حياً ، نظيفاً من أعشاب الذئاب .

لم تغادره ميري إلا في لحظات جنونه . في دقائق الكراهية الغريبة الوامضة ، وجثمت فيه حناناً وواحة .

الآن سيراها ، ويحتضنها . . لكنها قد تغلق الباب . قد تنزوي بعيداً عنه . لكنه لن يغادر أشعة أناملها .

يدق الباب طويلاً ، حتى يسمع وشوشة واقداماً خافتة . يمتلك الرعب والحب قلبه . ماذا لو لم تكن هي؟ ماذا لو غادرت؟

يسمع صوتها يسأل عن القادم ، فيكاد يترنح من الفرح!

حين باح بشوقه فتح الباب على عجل ، وارتمت ميري في وجه شوكي مصفر واحضان مزهرة .

فوجىء بجسمها الخفيف النحيل ، وغياب التكور الكبير ، واردتداتها لغاضبة الشاكية وولعها الطافح به . قادته الى سرير صغير جثمت فيه كرة ضئيلة من اللحم ، ذات وجه براق وعينين واسعتين مدهشتين وجبين بارز ساطع وشعر خافت ذهبي .

من أين جاءت باقة النار هذه؟ من أي ينبوع يتدفق هذا الزلال والضياء والفرح؟ أهذه قطعة منه ، هو المدنس والـمُضّلل والجامد؟

لماذا تغفر ميري كل شيء ، حتى هجرانها في ذروة عذابها؟!

سوف يكرس نفسه لهذين الكائنين الجميلين الى الأبد!

وعاد الى الجريدة قائلا كلمات جديدة ، معجونة بهواجس الآلة الكاتبة المسروقة من مدرسة الاطفال ، ومن سكينه الغائصة في كتف الاغتصاب ، ومن أشعة ابنته المتنامية ورداً ولغة في روحه .

كان ينسج حكايات حيه ، كيف احترقت عائشة المبروكة بشرابها الناري : وجدوها مشرحة بمناجل سوداء . وكيف مات غلام من سله الطويل مثلما حلم به تماماً .

كلماته كانت تحفر الجبل . رئيس الموظفين البريطاني يحمر وجهه ، وهو يهز أمامه الفقرات المذبوحة .

يود أن يقيم جسراً بين النخيل والغابات . يجمع الصحراء والمحبة . أن يكون لعائشة ابنته فرصة العيش والحلم الجميل .

لكن المدير يهزأ من خطبته ويشير الى الباب والشارع . لا يستطيع ان ينزل ، ويذوب بين حشود الباعة ، ويبيع لسانه في سوق اللحم ، ويرى الاحياء والسفن والاكواخ تحترق .

لكن الزلزال حدث بغتة .

اصطخب كل شيء فجأة . انفجرت الاصوات وانتشرت الرايات واللافتات ، السماعات ترجف ، والاصوات الغاضبة تنهمر من الاذاعات ، والرياح الساخنة تعصف بالحقول والرؤوس ، والحشود تطلع من الازقة صارخة .

كانت الجموع محصورة في الدروب الخلفية ، وكتل السيارات والشاحنات المعبأة بالرجال ، تمنعها من التوغل في ميادين المدينة .

كان يكتب بسرعة ، والمبنى في دبيب قلق محموم . توقفت الثرثرات ، وطلعت اوراق الجريدة دون ان ينظر اليها احد . النظارات تجمدت على الطاولات واختفت بدلات البيض واحدة تلو الأخرى .

. . . كان ينصت الى الدوي العميق الذي يهز الابنية والشوارع ، فيشعر بالفرح الغريب والقلق الممض .

قذف الورق ، واندفع صوب الباب . فسمع الانفجارات وطلقات الرصاص تدوي ، وظن ان الجمهور الحاشد قد انهار وتشتت في الدروب ، اسرع النزول ، فدهش من الدمدمات المنهمرة والاصوات الكاسحة ، وشم رائحة دخان عنيفة ، ورأى زجاجات النار تكسر زجاج النوافذ وتقتحم الغرف وتلتهم الورق ، اهتز المبنى بعنف ، وحين وصل الى الباب الخارجي ذهل للجمهور الهائج الواسع وأياديه الكثيرة وبحر رؤوسه العاصف . .

لا يستطيع ان يشق الزحام . أعمدة الدخان المندلعة الى عنان السماء والمتناثرة في قوس الارض والبحر ، هزت قلبه ورأسه . لم يعد يستطيع ان يوقف خوفه وفرحه .

لا مكان لقدمه ولا لانفاسه وصوته . الرجال الذين كانوا يزحفون وراء العربات ، جثث القوارب والسفن والجبل والمزارع تصحو وتمشي فوق الميادين ،

مـزيحـة صـور المندوبين السـيـاسـيين وتماثيل الشـوارع . مـرضى العـشش والمستنقعات يكسرون الزجاج ويأخذون ادويتهم ، ويشعلون النار في المتاجر والمخازن .

صـارت اللحظة الهـائلة لا تخـصـه ، الصـور المرفـوعة تغـيظه ، الكلمـات الصـاخبة تجرحـه ، تزيحـه الجـموع وتدفـعه في مسـار مـعاكس ، تأخـذ يده وانفاسه في مجرى التدفق نحو المخازن المغلقة التي تُحطم ، وهو لا يستطيع ان يرتفع فوق رصيف ليقول شيئاً . .

البـدلة تتـحـد بالرمـاد ، والـوجـه يسـبح في الدخـان ، والروح تتـشكل من الحزن الجارف ، والقدمان تتسربان بعيدا عن الحشود الهائجة . . الجسر الرابط بين المدينتين ممتلىء بالعـابرين والـهاربين والجـرحى . . يظهـر مـربع البنـايات البعيد وسط سحابة قاتمة .

كانت باصات محطمة على الطريق ، وعجـلات كثيرة تحترق مطلقة روائح فظيعـة ، ووجوه النـاس مغطاة بغترها وعبـاءاتها ، والنهـار تحول الى ليل ، ودوت صفـارات الحريق والاسعـاف ، واندفع الاطفال في جوقات حـماسيـة يرددون صخب الكبار . .

كلمـا اقـتـرب من مـربع البنايات ازداد رعبـه . ثم صـار يركض كـالمجنون ، مصطدماً بأناس لا يراهم ، وبأعمدة ، وأسيجة ، ويعبر زاحفاً المتاريس المبعثرة وشظايا البشر الذين بعثرهم الانفجار الكبير .

أخيراً يمسك السور لكنه محطم . العمـارات سوداء متفـحـمة ، وبضع ألسنة من الدخان لاتزال تفح من النوافذ . حشـد من الخراطيم السوداء تدفق المياه . تكونت بحيرة طغت عليها اشياء ودماء . هنا فوضى ورحيل ونهب .

يخـوض ، ويمتلىء بنحـيب ، ويجـد اشجـار الورد تناوش سيـره ، ومـلابس

النسوة منتفخة بالمياه ، وفحيح الاثاث المشتعل وكتل الغاز والدخان ، وصيحات رجال المطافىء تمنعه من التقدم ودخول عمارته .

- «لا أحد هناك . . ارجع . .!»

تلفحه الحرارة ، ويمضي الى قلب المحرقة ، ويجد البلاط يشوي حذاءه والنار تقترب من عظمه .

الاشياء مدمرة او محروقة ، وفوضى عارمة كانت قد دبت هنا . . وشقته مر بها اعصار كاسح لم يبق لديه شيء . . وليس ثمة روح في المكان .

إستعاد شيئاً من هدوئه ، لم تعد ثيابه عليه ، وضغطت رئتاه على جلده وراح يبصق دماً .

يعود مجدداً الى المدينة ، كتل البشر المضطربة الهاربة ، السارقة ، المجروحة ، الصارخة ، تصطدم به ، ولا يحس بها .

اقترب من مستشفى الارسالية الامريكية بعد مشي مرير ، وكان المساء قد حل ، وألسنة اللهب نور مرير يضيء الاشباح والخراب .

كانت هذه أول مرة يدخل المستشفى بعد هروبه منه . لم يتغير كثيراً ، من هنا جاء ودخل مع إسحاق وجدته في تلك العربة الصغيرة ، وفي هذا الفناء جلسوا ينتظرون . هناك ماتت جدته ، وهنا امسك يد ميري . .

كان يتمنى من اعماقه ان تظهر تلك المرأة امام الأسرّة المضطربة الممتلئة ، لتقوم بمهامها . امرأة نشطة جميلة ، كانت تدفق الصحة والحياة والفرح في عروق المرضى . كان وهجها المتألق يبعث الصحو واليقظة في الرؤوس المنهارة على الوسائد .

لم يطلب اشياء كثيرة في حياته ، انحنى للرب مرة راجياً ان يخلص جدته من عذابها المرير ، كانت كل امنياته تطير مع الريح ، كان بحثه عن

ابيه وعائلته فاشلاً ، كان بحثه عن صديق ، وعن رفقة عظيمة مخيباً ، كان دبيبه نحو عمل مروعاً ، لم يبق ، لم يبق اي شيء سوى الكائنين اللذين يحبهما ، فأي كون قاس ومرعب بدونهما . .؟

سوف يسامح الجميع ان تركوا له هاتين الهديتين الثمينتين . .!

راح يطالع كل جريح . نساء سوداوات وسمراوات ظنهن ميري . . يصطدم بكتل الجرحى والمرضى والممرضات ، ثمة صمت مرير وبحث مرعب وصارخ ومزعج عن وجوه الموتى والمفقودين والجرحى .

مصابيح الشوارع تنطفىء ، وثمة طوابير حديدية ضخمة تتوغل ، والناس تحدق فيها بتوجس .

الجثث مصفوفة ومغطاة في مخزن كبير . أجساد مختنقة او محروقة او مقتولة . النيران والدخان والرصاص والزحام اخذتها الى الصمت المطبق . تتحرك الاقدام بينها ببطء شديد . حين يُرفع غطاء تندلع صرخة او يحل صمت .

وهو كلما رفع غطاء اصطدم بوجه ذي ملامح خاصة . كلها كانت تؤلمه . السود والبيض والسمر . الوجوه المختنقة او المطعونة ، المحروقة بالنار او المخترقة بالرصاص ، او المهشمة بالقضبان ، كلها هادئة ساكنة تركت آخر خيط من الرعب .

وانتبه الى انه رأى وجهاً مألوفاً ، وجهاً . .

وجه ميري متجمد في تعبير أخير وأبدى للهدوء والحب . كأنها نزلت الى بركة وماتت . او كأنها استمتعت بلحظة عشق أخيرة . شفتاها مطبقتان وعيناها مغمضتان ، وثمة اصابع من رماد ودم حاولت ان تلوث بياضها . ليس ثمة مكان لرصاصة او للسعة سكين ، جسد مغسول بالكيروسين ورياح

الفحم ونشوة الماء .

عيناه متحجرتان وقلبه سقط في مستنقع مشتعل ، ودمعه مثل الشرارات التي تتساقط في بئر نفط ، وانفجارات مروعة تدوي في روحه وكل انقاض المدينة تجمعت فيه . .

«أنا اعرف الليل . . كم هو قاس والكره كم هو فظيع ، وان الفرح قليل وضئيل ، وان الوجود كتلة من المادة التي لا ترحم ، وقد فقدت تعاويذها وملائكتها ، ولكن الى هذا الحد تبلغ قسوتها ولا مبالاتها وتحجرها وعدوانيتها؟!» .

يحتض الجسد ويجهش بالبكاء .

يقوده ممرض الى كتلة صغيرة تخصه . طفلة اقتحمت امها المكان لتخرجها من اللهب . هادئة صامتة وتدخل احضانه مغسولة بالدمع والفرح .

٤١

في طرطشة الفرح الاخيرة ، وهو يحتضن الجسد الذي يخصه ، ويعيده الى ضياء ميري ، وجد ضابط القلعة يحدق فيه بشراسة :

– كنا نبحث عنك يا يحيى! سوف نضع هذه الطفلة في حمايتنا ريثما تقوم بالمهمة المطلوبة!

لم يكن عقله ولا صوته ولا سمعه عنده . كان الناس والاشياء مرئيات خلف بحيرة الوجود المتبخرة ، كانوا ظلالاً للخيبة والقسوة .

إنتزع جندي الطفلة ، وانحشرت بين جسمه الفارغ وحشود الحديد فيه ، وكان انفجارها العنيف بالبكاء ، ويداه العاجزتان عن إعادتها . .

قال الضابط :

– سوف تدلنا على مخبأ إسحاق يا صديقه العزيز!

من إسحاق؟

كان قد نسي الطوفان البشري والحرائق والصرخات والحطام ، وروحه التي هامت بصخب بشره ، ثم سقطت على سكاكين شارعه .

ولما سكت طويلاً ، انتزعه الجنود ، ووضعوا حربة بين عينيه ، وتركوا لاحذيتهم القوية حرية التجول بين ضلوعه .

شاحنة عسكرية تأخذه وتتغلغل بين الحطام . عربات ومصفحات بريطانية في كل مكان ، عليها إشارة تشبه الصليب ، والنار تنطلق نحو أي كلب ، او قطة ، يتحرش ببقايا الطعام .

مئات الجنود يجرون الناس نحو الزنازن ، او لإنتراع الحطام ، ولتحطيم الأبواب . الصمت الغريب في الشوارع لا تقطعه سوى زخات الرصاص والصرخات وعواء الريح . جاء غبار من الشمال ، وتكثفت الظلمات .

يدرك انه يقوم بمهمة يهوذا . ولكن المدينة لم يأت لها سوى الشيطان . ان قدرته على تلقي مزيد من الألم تلاشت . ولم يعد يفرق بين عقرب وثعبان ، وبين ظلام وسخام .

والشاحنة المتقلقة ، السائرة نحو الجسر ، تهز روحه . لماذا افترق عن إسحاق ، لماذا لم يكن معه في خطواته؟ لماذا انفصلا بحدة ودم؟

ثمة صبيان يجريان في خلاء بيوت السعف ووراءهما الكلاب وحجارة الأولاد المنقضة ، الشقيان اللذان يخطفان حلوى الاطفال ، ويتدليان في أعماق براميل القمامة . .

ثمة صبيان تعاونا على امتلاك الكلام والورق ، وغاصا في ردهات مبنى فصل لهما بدلات من الجراح والأفراح . .

كانا يتبادلان خطط الإغتيال بلا نجاح . . كانت كوابيس النفي المشترك تذوب مع قهوة الصباح .

ثمة صبيان لقيطان ، امتلآ بالكراهية او الحب ، خسرا عمريهما . . انه لا يريد ان يثأر الآن لحرق بيته وجدته وموت زوجته . انه لا يريد سوى ان

يتخلص من هذه الشاحنة الثقيلة ، ومن ضغط الحراب ليمسك صغيرته ويفر بها الى العزلة .

الليل والدمار والصمت والمياه وفوضى الريح صار يراها من زجاج شاحنة معادية ، ولعل النوافذ الحبيبة ترمق الان عاره وتعد له السكين الاخيرة والقبر . . .

الشاحنة تعبر الجسر لتصل الى المدينة الاخرى ، وكل خطوط الحياة وشرايين المكان وقفت عليها جنازير الحديد الثقيلة ، وكل الأنفاس تتحشرج الآن في الشقوق والظلمات والاقبية ، ولم تعد سوى الصرخة الاجنبية تشق الصمت واللحم .

تتوغل الشاحنة حسب إشارات اصابعه الواهنة .

تدخل أول زقاق في قلب المدينة .

انهمر مطر صاخب فجأة ، قذائف من حصى تدك الحديد . أيدٍ لا تعرف الكلل تطلع من انفراجات الطرق وفتحات الازقة وتتحدى النار .

الزجاج يتطاير ، والعسكريون ينزلون خوذاتهم ، ويطلقون الرصاص ، لكن ذلك المطر لا يتوقف ، يندلع من كل مكان ، وكأن المدينة صارت تتنفس حجارة وبرقاً .

يقود يحيى الطابور من الشاحنات ، الآن في طرق موهومة ، خادعة ، متمنياً ان يُسحق كل هذا الثعبان الآلي الطويل ، او يهرب رجال الجزيرة الصغيرة القريبة .

كيف تنبثق المياه من الروح؟ كيف يسطع اللؤلؤ من تحت الرماد والفحم والألم ، وتغدو الأرض المسنونة بالزجاج والمسامير ، وبالبشر القساة الجهلة الطيبين ، كائناً فوق الوصايا المقدسة ، والاخطاء العابرة؟

كيف تتجلى له ميري الآن مرسومة بخطوط الألعاب والمأساة النارية؟
كيف يتخلى عن صغيرته الآن ، ويدعها مثلما تركته أمه للصدفة ، وللايدي العابرة وللمحطات غير المرئية المتوقعة للزمن؟
من سيراها في علبة كارتونية ملقاة عند احد الازقة ، او في سرير ملجأ؟
ستصرخ من اجل معرفته وتلعن خطيئته!
لكنه في هذا المطر الناري الحجري ، في طوفان الارض والمصير ، لا يستطيع سوى ان يضلل جيش الغزاة مستعداً لاية رصاصة تستهدف رأسه .
كانت ثلة الشاحنة مُصابة بالغضب والرعب . انها تغوص عميقاً في جحيم المدينة ، وتنحشر بين حجارتها وايديها ، ومطر الحجارة يتحد بمطر السماء ، وبالصواعق ، والزجاجات ، والبروق ، وغدت الشاحنات كسفن متعثرة باليابسة ، وجن الضباط والجنود ، وغدا ضابط القلعة مسعوراً ، ووضع المسدس على عظام رأسه ، واطلق رصاصة انتزعت ثلث اذنه فراح الدم يغسله .
غدت المرئيات انفجارات وصيحات وآلاماً ، وراح الضابط يجره في المستنقع ، تحت المطر والحصى ، والجنود يفتحون النار على الأيدي والنجوم وحمامات السطوح .
ترنح على شاطىء الجزيرة التي بدت نائمة وسط المياه الضحلة والقوارب .
اندفع الجنود اليها ، ولم يعد يستطيع ان يرى شيئاً .
تمنى ان يكونوا قد لاذوا بالفرار . راح ينزف على الرمل ، ولم تقدر ملابسه ان تسد ينابيع دمه الفوار الذي راح يدفئه قليلاً .
سمع ضجة وصياحاً ، ورأى ان السماء المعتمة الماطرة بها غيوم كثيفة تمشي ببطء وجلال . كأن نزيف دمه يتوقف من كثافة ملابسه ، احس

بالراحة لا نه قد يعيش ، لكن المرئيات راحت تبتعد وراء دخان متقلقل .

انتبه الى صوت يعرفه ، وضجة كثيفة ، وفتح عينيه بقوة ليرى شيئاً يشبه المشنقة ، او الصليب ، وجسماً ما يُقاد اليها . .

سمع صرخة بأسم الوطن ، ثم تأرجح الجسد في المطر .

يوليو ١٩٨٨

تعريف بالكاتب

ـ من مواليد سنة : ١٩٤٨

ـ خريج للمعهد العالي للمعلمين في سنة ١٩٧٠ ، وعمل في سلك التدريس لبضع سنوات . ومنذ سنة ١٩٨١ ، عمل في الصحافة ، وخاصة في الصحافة الثقافية .

ـ كتب منذ نهاية الستينيات القصة القصيرة والرواية والمقالات والدراسات الأدبية والفكرية .

ـ صدرت له أول مجموعة قصصية سنة ١٩٧٥ .

ـ صدرت له عدة مجموعات قصصية وروايات هي على النحو التالي :

ـ لحن الشتاء ، قصص ، دار الغد ، ١٩٧٥ .

ـ اللآلىء ، رواية ، دار الفارابي ، ١٩٨١ .

ـ الرمل والياسمين ، قصص ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٢ .

ـ القرصان والمدينة ، رواية ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٢ .

ـ الهيرات ، رواية ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٣ .

ـ يوم قائظ ، مجموعة قصصية ، دار الفارابي ، بيروت .

ـ أغنية الماء والنار ، رواية ، دمشق ، إتحاد الكتاب العرب ، ١٩٨٩ .

ـ إمرأة ، رواية ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩١ .

ـ الضباب ، رواية ، دار الحوار ، حلب ، ١٩٩٤ .

ـ نشيد البحر ، رواية ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٤ .

ـ سهرة ، مجموعة قصصية ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٤ .

ـ دهشة الساحر ، مجموعة قصصية ، دار الحوار ، حلب ، ١٩٩٧ .

ـ الينابيع ، جزء أول ، رواية ، إتحاد كتاب وأدباء الإمارات ، الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٩٨ .

ـ الينابيع ، جزء ثان ، رواية ، إتحاد كتاب وأدباء الإمارات ، الشارقة ، ٢٠٠٠ .

ـ الينابيع ، جزء ثالث ، رواية ، تحت الطبع .

ـ جنون النخيل ، قصص ، ١٩٩٨ ، دار شرقيات ، القاهرة .

تحت الطبع :

ـ المسرح البحريني : عروض ورؤى .

ـ الإتجاهات المثالية في الفلسفة العربية ـ الإسلامية ، (عدة أجزاء) .

ـ سيد الضريح ، مجموعة قصصية .

ـ البحرين : جدلية المكان والتاريخ .

ـ الراوي في عالم محمد عبدالملك القصصي .

رقم الإيداع بمكتب حماية حقوق المؤلف : ٧٩٥ / ٢٠٠٢م
رقم الإيداع في إدارة المكتبات العامة: ٣٢٩٠ د. ع. / ٢٠٠٢م
رقم الناشر الدولي ISBN: 99901-01-37-X

AL_AQLAF / NOVEL



الأقلف



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ...
عيدبن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨

